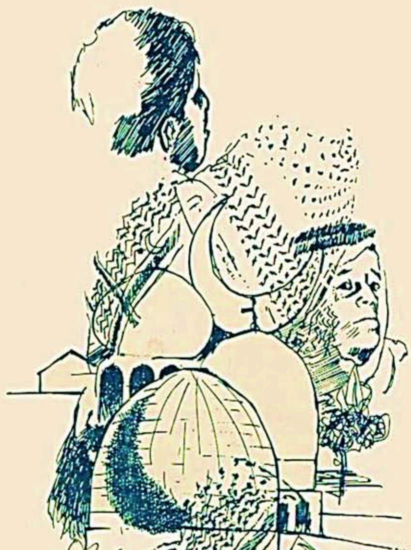
نيكوس كازانتزاكي

رحلة إلى فلسطين

أخطر وثيقة ضد الصهيونية يكتبها روائي ومفكر عالمي في أوائل هذا القرن

ترجمة: منية سمارة
محمد الظاهر



نيكوس كازانتزاكي

رحلة إلى فلسطين

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية (٥٨٩/ ٩/ ١٩٨٩).

ع ر٩١٥
كـاز   كازانتزاكيس، نيكوس.
رحلة إلى فلسطين/ نيكـوس كازانتـزاكيس، ترجمـة منيـة سمارة، محمد الظاهر .ـ عمان: مؤسسة خلدون، ١٩٨٩.
(٨٥) ص
ر. أ (٥٨٩/ ٩/ ١٩٨٩)
١ ـ فلسطين ـ وصف ورحـلات أ ـ منيـة سمـارة، متـرجم
ب ـ محمد الظاهر، مترجم ج ـ العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م

الناشر: مؤسسة خلدون للدراسات والنشر
هاتف ٦٨٩٨٦٢ ـ ٦٨٩٨٦٣

تصـديـر

بين عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧، أوفـدت صحيفـة «اليغيثـروس لوغـوس» اليـونـانيـة، الـروائي اليوناني الكبير نيكوس كازانتزاكيس، المرشح لجائزة نوبـــل عام ١٩٥٦، إلى فلسطين، لتغطيـة احتفـالات عيـد الفصـح عام ١٩٢٦. وقد نشرت مشاهداته هذه في الصحف اليونانية في نفس العام.

وفي عام ١٩٢٧، نشـرت الطبعـة الاولى من كتـابـه «تـرحال»، التي تشتمـل على مشـاهـداتـه في كل من فلسطين ومصر، وايطاليا، وقبرص، ولكن نظـراً لخطـورة المقـالات التي كتبهـا نيكـوس كازانتـزاكيس عن «فلسطين»، في منتصف العقـد الثـاني من هذا القرن، فقد وجدنا أن من المنـاسب أن يكـون هذا الكتـاب مشتملاً على هذه الوثيقة التاريخية التي كتبها أهم روائي ومفكر في هذا القرن، والتي أدان فيها الصهيونية قبل أن يتنبه العالم الى الخطر الصهيوني، والى الكوارث التي ستقع على العالم أجمع نتيجة لهذه الحركة التي سيكون وقودها اليهود قبل غيرهم.

لقد كانت هذه المقالات والمشاهدات، نبوءة، وإشارة تحذير للخطر القادم، قبل أن تكون مجرد مشاهدات قام بها كاتب كبير لفلسطين. ففي هذه المقالات، يحاول نيكوس كازانتزاكيس أن يطرح نبوءته للقرن العشرين، هذه النبوءة التي جاءت الوقائع لتؤكد صدقها، وتؤكد الفكر النير الطليعي لهذا الكاتب.

ولكن كازانتزاكيس لم يكن راضياً عن طبعة الاسكندرية، لانها كانت ـ على حد تعبير السيدة هيلين كازانتزاكيس ـ بعيدة عن أجواء كازانتزاكيس بشكل كبير، فقد نشرت بلغة «الكاثاريغوسا»، وهي اللغة اليونانية الصافية، والتي كانت في نفس الوقت اللغة الصحيفة الرسمية.

وعندما جمعت الاعمال الكاملة لـ «كازانتزاكيس»، واعدت للنشر، أعاد كتابة «ترحال» من جديد مستبدلاً الكلمات «الكارثاريغوسية» المقعرة بكلمات يونانية بسيطة، واسعة الانتشار، وقام بمراجعات اضافية جديدة، وأضاف فصلاً عن «موريا»، أما الطبعة الجديدة المنقحة، فقد نشرت في اليونان عام ١٩٦١، بعد وفاة الكاتب، لذلك فان المقالات التي تشتمل عليها، هذه الترجمة عن فلسطين مأخوذة، من آخر طبعة منقحة للكتاب.

ونحن ندرك أن هذا الكتاب سيحظى بإهتمام خاص، من قبل القارىء المعاصر، ذلك أنه يكشف عن الحدس النبوئي في نظرة كازانتزاكيس لهذه البلاد، لانه في فترة مبكرة، أي منذ عام ١٩٢٧، استطاع أن يستشف أن مصير وقدر الغرب ينتقل الى الشرق، اضافة الى اشارته الى بروز مصر كقوة بارزة في العالم.

لقـد كتبت هذه المقـالات بصـورة أولية ، أصلية ، مباشرة ، وجديدة ، وبالرغم من الظرف الزمني الدقيق والحرج ، الذي لم يؤكد على وجود بنية فنيـة مقصـودة ، إلا أن هذه المقـالات البسيطـة والمباشرة ، اشتملت على أفكـار ذات نظـرة ثاقبـة وعميقـة للتـاريـخ . لقـد كشفت لنـا عن مصر في منتصف العشرينات ، وهي تشهد نمو بذور الثورة ، في هذا الشعب الذي عرف على الدوام بأنه سلس القياد ، وشديد الخضوع لاسياده ، فمن خلال وصفـه للفـلاح العـربي وهـو يجر المياه من البنك بنفس القادوس البدائي الذي كان يستخدمه أجداده الأول ، يرينا كازانتزاكيس العربي ، كانسان لا ينفصـل أبـداً عن ماضيـه . وهـذا هو ما يحـدث أيضـاً حين يزور احـدى المـزارع التعـاونيـة الصهيـونية الحديثة ، حيث يصف لنا الاجيال اليهودية المعـاصـرة ، والقـويـة التي ترتبـط ارتبـاطـاً مصيرياً لا مناص منه ، بالقدر التراجيدي اليهودي .

إن وصفـه الـواقعي المبـاشـر ، يعتبر عملاً فريداً ونادراً ، خارج سياق الحتميـة التـاريخيـة ، لقـد نظر الى هؤلاء الناس ، والى هذه البلاد ، نظرة شاملة ، تعتمـد على دمـج المـاضي والحـاضـر ، من أجـل تصـوير شكل مستقبلهم ، ومن أجل تحديد صورة العصر القادم ، عصر الثورة .

هذه النظـرة الشـاملة ، تسيـر جنبـاً الى جنب ، مع الـوصف السهـل الممتنع الساحر ، لهذا العالم الملموس ، وللواقعية المعاصرة ، التي تكمن تحت سطحه ، والتي تكشف عن نهوض الشعوب الشرقية :

«ببـطء ، ولكن بشكـل أكيـد ، أخـذت الـوحـدة الهـائلة المرعبة بين

المسلمين تتشكل . . من مراكش حتى الصين، ومن تركستان حتى الكونغو . . فالشعوب الشرقية تسير بخطى واسعة الى الامام» . .

وهذه النظرة أيضاً، تسير جنباً الى جنب، مع هذا الوصف الشاعري الرائع، لاريحا، والخليل، والسامرة، والجليل، والتجمعات الزراعية الصهيونية الحديثة، ووجودهم المرصود بالخطر العربي، والشتات المحكوم عليه بالهلاك .

لقد رأى كازانتزاكيس ان الحلم الصهيوني سينتهي بشكل تراجيدي، وكان ينظر الى الشتات كحتمية تاريخية، شكلت الجنس العبري عكس مشيئته ورغباته، وهكذا شكلته في خميرة الارض، ودفعته الى لعب دوره الخاص في التاريخ، من أجل حماية الجنس البشري، من الجهود الكبيرة المدبرة، لخلق الرضى وراحة البال . إنها حجة بليغة ومثيرة للعاطفة، لاولئك الذين ما يزالون يثيرون بجرأة التساؤلات ويقفون في وجه عملية الخداع الذاتي، لهذا التوازن المدبر، للحالة الراهنة، وقد طرحت هذه الفكرة بدقة أكثر من خلال طروحاته حول مولد الابطال، وقد تطورات هذه الفكرة وتوسعت فيما بعد، في روايته الرائعة المؤثرة: «الامتحان الاخير للمسيح» .

كذلك، فإن هذه المقالات تكتسب فرادتها من خلال الآراء المباشرة الآنية حول الاماكن والناس، والتي تطورت فيما بعد، لتصبح اللبنة الأساسية في العديد من أعماله اللاحقة وبشكل خاص، في عمله القريب من السيرة الذاتية «تقرير الى غريكو» والذي تأثر فيه، في أكثر من

مكـان، بوصفـه الـرائـع لسينـاء. كذلـك فان الاستلهـامات المأخوذة من سيناء، تكررت أكثر من مرة، في أعمال مثل «الامتحان الاخير للمسيح»، و«الوجد اليوناني»، و«الحرية أو الموت».

لقـد أثـرت خبـرات وتجارب السفر على العديد من أعماله العظيمة، في «الاوديسـا المعـاصـرة»، وفي «مـوسى» أيـامنـا المعـاصرة، الجريء المقدام بوصاياه العشر الجديدة، و«زوربا» على سبيل المثال لا الحصر. كذلـك فقـد ساعـدت على تأطير فلسفتـه التي كشف عنهـا بوضـوح في «مخلصو الرب»، وفي «آراء»، أحد أعماله المبكرة التي اكتشفت أخيراً.

لقـد كانت الـرحـلات ذات قيمـة كبيـرة، وأهميـة بالغة، لانها كانت مصـدراً للابـداعـات الخـلاقة لكازانتزاكيس، فقد كان الشرق بالنسبة له، يشكل مصدر جذب سحري، فهو كانسان كريتي، يشعر بصلة القرابة مع هذا الجـزء من العـالم، ويرغب أن يؤكد إيمانه، بأن أجداده، يجري في عروقهم الدم البدوي.

وقــد أخــذت هذه المقــالات الصحفيــة التي تشتمـل عليهـا هذه المجمــوعــة، أكثـر من غيـرهـا، نصيب الاسـد، من خبـرات وتجـارب كازانتزاكيس الحياتية.

على أية حال، فان صدور القسم الخاص بفلسطين من هذا الكتاب الهام، ما هو إلا تأكيد على وثيقة هامة يجب أن تأخذ مكانها من الاهتمام العـربي والعـالمي، ولكن هذا لا ينفي أن الكتاب بمجمله، والذي سوف

نعمـل على إصـداره بشكـل كامـل في المستقبل هو من أهم الكتب التي يجب على القاريء العربي أن يقرأها، لانه كتاب يقرأ الماضي بلغة المستقبل.

«المترجمان»

* اعتمد هذا التصدير، بشكل كبير، على المقدمة الانجليزية للطبعة الكاملة لكتاب «ترحال».

الفزارة* رفيقة رحلتي

يناضل الخالق، بروح عنيدة لا مرئية، من أجل أن يحافظ على تفوقه، ومنزلته الرفيعة. لذلك فان كل نصر عظيم، يتمخض عن إحباط وهزيمة، لان أعماقنا الخفية ـ الشيء الوحيد الذي يستحق الحديث عنه، ويبقى دائماً دون حديث ـ لا تستطيع أبداً أن تخضع نفسها للحدود المادية الملموسة للفن. فنحن نثور لأية كلمة. نرى الاشجار في فترة الازهار، والبطل، والمرأة، ونجمة الفجر، ونصرخ «آه» ولا يستطيع القلب أن يتحمل شيئاً أكثر من ذلك. وحين نحاول تحليل هذه الـ «آه»، وتحويلها الى فكر وفن، من أجل خلق التواصل بينها وبين الآخرين، ولحمايتها من تحريفاتنا وتأويلاتنا الخاصة. آه كم تصبح رخيصة، حين تصبح كلمات صفراوية مزيفة، مليئة بالفراغ، والوهم.

ذات ليلة، رأيت هذا الحلم، رأيت نفسي منكباً على كومة من الاوراق، أكتب، وأكتب، وأكتب. . . وكنت ألهث كأنني أصعد جبلاً، وأجاهد من أجل أن أَحْفَظ وأُحْفَظَ، واحارب بالكلمات، وأقاتل من أجل

قهرها، وكنت أشعر بها تتفاخر حولي بصورة هوجاء، وتجمح كالجياد النافرة.

فجأة، وبينما أنا منكب على الأوراق، أحسست بومضة بارقة، تنفذ الى لب جمجمتي، وقد أصابني الفزع، وأنا أرفع عيني: فقد رأيت قزماً ينتصب أمامي، بلحية سوداء طويلة تلامس الارض، وكان يهز رأسه الثقيل ببطء، ويحدق بي بازدراء. إرتعبت، وأحنيت رقبتي على الكومة مرة اخرى، وتابعت الكتابة. لكن تلك النظرة بقيت تضرب قمة جمجمتي بلا هوادة، رفعت عيني مرة اخرى وأنا أرتعش، فرأيت القزم ما يزال واقفاً هناك، يهز رأسه، وينظر إلي بحزن وأسى. وفجأة، وللمرة الأولى في حياتي، أشعر بالاشمئزاز يفور في أعماقي، وأشعر بالسخط على هذه الأوراق، والكتب، والحبر، التي فقدتها، في صراعي غير المقدس من أجل أن أغلف روحي، بهذه القوالب الجميلة.

أفقت وأنا أشعر بهذا التقزز والغثيان في أحشائي، وسمعت صوتاً حاداً ينطلق داخلي، وكأن القزم ما يزال واقفاً أمامي ويتحدث:

ـ «لقد ضاعت حياتك في التجارب والاختبارات، وعند نهاية كل طريق كان الظفر يقف بانتظارك، لكن بما أنك كنت متسرعاً دائماً، فقد كنت تخسر قلبك، وتعود، الناس لا يرون الهنادات* أنهم لا يسمعون الأغاني التي تملأ الجو. فهم عمي صم بكم، يدفعون بمجاديفهم من أجل السيطرة على الأرض. لكن صفوة الربابنة هم الذين يصغون الى صوت الهنادات داخلهم، صوت أرواحهم، لذلك فهم يسرفون في تبديد

حيواتهم من أجلهن. ما هي القيمة الاخرى التي تظن أنها بقيت لحياتك؟ البؤساء يسمعون الهنادات ولكنهم لا يصدقون ذلك. فهم متخمون بالحكمة الزائفة والجبن، ويزنون الكلمات قبل أن يقولوا «نعم» أو «لا»، يزنونها بميزان الذهب الحساس طوال حياتهم. ويموتون، وحين يموتون، يتحير الرب ولا يدري أين يضعهم فهم لن يزينوا جهنم، ولن يدنسوا الجنة فيأمر بأن يعلقوا رأساً على عقب في الهواء، بين الفساد والاستقامة».

- «انك عاجز بشكل مزرٍ وأنا أخجل أن أجرك معي على طول المدى».

قلت بازدراء:

- «لقد وصلت الى النهاية، وعند نهاية كل طريق، لم أكن أجد سوى هوّة سحيقة».

- «انت لم تجد سوى عجزك عن التجاوز، فالهوة السحيقة، لفظ نطلقه على أي شيء لا نستطيع تجاوزه، لا توجد أية هوّة، ولا توجد أية نهاية، هناك فقط، روح الانسان، وهذه الروح تعني كل شيء حسب شجاعة الانسان الخاصة، أو جبنه الخاص. فالمسيح، وبوذا، ومحمد، وجدوا هذه الهوة، ولكنهم استطاعوا أن يبنوا الجسر الذي عبروا من فوقه، وعبرت خلفهم أفواج كبيرة من البشر، هؤلاء هم القادة، وهؤلاء هم الأبطال».

- «الانسان لا يصبح بطلاً إلا بواسطة الرب، أو عن طريق النضال والكفاح، وأنا أُناضل».

- «بطل؟ لكن البطولة تعني تدريب النفس من أجل التغلب على

العـدوانيـة، والحفـاظ على التفـوق، بلا كلل أو ملل. أنت لا تستطيع أن تقهـر الفـوضى داخلك، وأن تصـل الى جوهر الكلمة، وأنت تبرر تهافتك بالقـول: «الاشكـال والصيـغ القـديمـة غيـر قادرة على احتـوائي» ولكنك تستطيـع ذلـك بالفن الطليعي، وبـاستطـاعتـك أيضـاً الوصول الى تخوم البطـولـة، فهناك متسع لعشر أرواح للعمل بسهولة ويسر في مجال البحث عن الحقيقـة. وحتى لو كانت هذه الحقيقـة ناقصـة، وقـاصرة، وانسانية، فانت قادر أيضـاً على هزيمـة القوى الطبيعية، وإيجاد القوانين التي توسع دائـرة حريتنـا على هذه الارض، من خلال الـرمـوز الـدينيـة الجـامـدة والخـامـدة، وتستطيـع أن تجمـع الـزخم لانجازاتك السامية، وأن تعطي الصيغة المعاصرة للولع الابدي للرب والانسان».

ـ «أنت جائر وقلبك لا يعرف الرحمة. لقد استمعت اليك مرة ومرات، أيها الصـوت البغيض القـاسي، الـذي أستمـع إليه عند كل تقاطع أقف عنده لصنع خياري».

ـ «وسوف تسمعني دائماً، عند كل تراجع وإرتداد».

ـ «أنـا لم أتـراجـع أبـداً، أنا أسير دائماً نحو الأمام، وأنهمك في كل شيء أهتم به، وأكابد من جراء ذلك وأعاني».

ـ «حتى متى؟».

ـ «لا أدري، حتى أصل الذورة، هناك سأرتاح».

ـ «لا توجـد أيـة ذروة، هنـاك مرتفـع فقـط، وليست هنـاك أية راحة. إنني أزدري جسمك وروحك وعقلك، ولا أستطيع تحمل هذا الوضع أكثر من ذلك، أنا لا أستطيع أن أظل مسافراً معك الى الأبد».

هذا الصوت القاسي، هو صوت [الفرازة ـ رفيقة رحلتي] ومع أنها أعلنت عن كرهها لي، إلا أنها بقيت ملازمة لي طوال رحلاتي كلها، لقد رأينا كل شيء معاً، أكلنا معاً، وشربنا معاً، ومعاً كنا نجلس على موائد الأرض الغريبة، وكنا نعاني معاً، ومعاً كنا نتمتع بالجبال، والنسوة، والأفكار.

وعندما نثقل بالغنائم، أو نثخن بالجراح، ونعود أخيراً الى ركننا البارد الهادىء، كانت هذه الفزارة تتشبث بقمة رأسي، فهذا هو المأوى الذي تبيت فيه، حيث تمدد نفسها بكل توترها حول جمجمتي، وتنشب مخالبها في دماغي، كي نقوم معاً باسترجاع كل ما رأيناه، وكل ما لم نره بعد، حيث يشعر كلانا بالغبطة لان هذا العالم المرئي وغير المرئي، سر راسخ عميق القرار لا يستطيع أحد تصوره، فهو فوق قدرة عقلنا، وأكبر من رغباتنا، وأبعد من يقيننا، وكنا نتحدث ـ كلانا، الفزارة رفيقة رحلتي، وأنا، ونضحك لاننا، ـ أنا وهي ـ ما نزال نمتلك الصلابة والشبوبية، وعدم القناعة، وإننا ندرك أنه كي نتأكد ليلة واحدة فقط، فانه يتوجب علينا أن نتعشى من راحة الأرض، كي نشعر بالقناعة. وحين نكون في قمة حيويتنا أو في دوامة الأسى الحاد الذي لا يحتمل، كنا نراهن على جعل الرب المرتعش يصرح بأغانيه الشجية للانسان الفقير البائس.

إلهي، يا لها من غبطة، أن تعيش، وترى، وتلعب مع هذه الفزارة العظيمة، ولا تشعر بالخوف.

وتنهض ذات صباح لتقول:

ـ «كلمات!! كلمات!، لا يوجد خلاص آخر، ليس في عماد قوتي من شيء، سوى أربعة وعشرين جندياً صغيراً، سأقوم بتعبئتهم، وسأقوم بتحريك الجيش، وأهزم الموت».

وأنت تدرك جيداً أن الموت لا ينهزم، ولكن قيمة الانسان ليست في النصر، بل في النضال من أجل صنع النصر، بل أن المهمة أصعب من ذلك، فأنت تدرك أن قيمته ليست في النضال من أجل النصر، وإنما في هذا الشيء فقط: ان يعيش ويموت شجاعاً لا يأبه بالمثوبة والاجر، بل أن هناك ثالثة الاثافي، وهي أصعب هذه الأشياء جميعاً: وهي الايمان بأنه لا توجد هناك أية مثوبة قادرة على أن تملأك بالغبطة والفخر، والبطولة

* الفزارة: هي انثى الببر، والببر سبعٌ هندي مخطط، غير النمر، ويدعى عَسْد وخرناق، وتطلق على المرأة المتنمرة.

* الهنادة: امرأة عند قدماء الاغريق، من عرائس الماء، تغوي الملاحين، بحسن غنائها وتودي بهم.

نحـو أرض الميعـــاد

البحـر الـذي كان يحمل الحجاج الى القدس، كان هادئاً، والسماء بغيـومهـا الـرقيقـة، كانت قد اتشحت بغـلالـة شفـافـة ساحرة غريبة. أما شواطىء اليـونـان، وجـزرهـا، ونـوارسهـا، ودلافينهـا المـرحة، وطيورها الصغيرة التي ترفرف وتغرد بين أشرعة السفينة، فقد ساهمت كلها في بث جو من الدفـء والسحر، النادر في نفوسنا، هذا اليوم.

كنت أراقب رفـاقي الحجـاج المسـافرين بفضول. وأتساءل: ما هي الـدرجـة التي وصـل اليهـا الانسـان المعـاصـر، بعـد تسعة عشر قرناً من السعي، والانجازات، التي دفعته لتحقيق هذا العشق العميق، في مغادرة بيتـه، والبـدء في هذه الرحلة الشاقة والمكلفة، الى الشرق، بين العرب، للعبادة في هذا المعبد المسيحي، الذي لم يعرف كنهه بعد؟

لقـد جاءوا من مختلف أنحـاء اليـونـان، وتجمعـوا في هذه القـافلة الدينية، بعضهم حمل معه أمتعته وصناديقه، وآخرون حملوا معهم صرراً بسيطـة، وسـلالاً. وحـال صعـودهم الى السفينـة انقسمـوا الى عالمين مختلفين، النصف الأول على السطـح، والنصف الثـاني في مجـرات،

وصالونات مريحة تصدح فيها الموسيقى.

أخذت أسير جيئة وذهاباً، بين هذين العالمين، كانت البطانيات الملونة، والأغطية الملوثة بالشحوم، منتشرة على الحبال، قرب محركات السفينة. وكانت مجموعة من النسوة الهرمات قد فتحن سلالهن وبدأن المضغ، فامتلأ الجو برائحة الكافيار الاحمر، والبصل. وفي وسط هذا الجمع، كان رجل عجوز، متورد الخدين، متهدل الشعر، يجلس، وهو يقرأ بصوت عال تاريخ المسيح: حياته، الأمة، كيف ذهب الموكب الى القدس، وبعد ذلك كيف تناولوا العشاء الاخير، وكيف تركهم الحواري الخائن على وجه السرعة، وكيف ذهب المسيح الى جبل الزيتون، وكيف كان العرق يتصبب من جبهته على شكل قطرات من الدم...

كانت النسوة الهرمات، الملتفات بشالاتهن السوداء يستمعن بانسحاق شديد، يهززن رؤوسهم، ويتنهدن، لكن دون أن يتوقفن لحظة واحدة عن المضغ، كن يمضغن بتبلد، وهدوء، كالنعاج. لقد تحول الرب مرة اخرى الى انسان يسكن قلوبهن البسيطة، لقد تحول الى انسان يصلب على الصليب الرهيب، ليحمي الجنس البشري مرة أخرى.

رجل عجوز آخر، كان يدير ظهره لمجموعة النساء، ويستمع، وقف متوكئاً على عصا الرهبنة، التي نقش طرفها العلوي على شكل رأس طائر وفجأة، وفي الجزء الذي يكاد فيه المسيح أن يموت من الظمأ، صرخ بقوة:

- «أنا ظامىء»

فوقفت امـرأة شابـة بدينة على قدميها مُستثارة، واطلقت هي الأخرى صرخة رهيبة لا تَحتمل:

ـ «ولداه»

شعرت بقلبي يتمزق بعنف، من جراء هذه الصرخة الامومية العميقة التي يصعب فهمها، صرخة هذه الام التي جعلت الرب ابناً لها.

بدأ غسق الاثنين المقدس ينشر سدوله، ونهض راهب قروي طويل، منحن، ونـزع غطـاء رأسـه الكهنـوتي، وتـرك شعـره الأشيب ينسدل على كتفيه، وبدأ يترنم بتراتيل صلاة المساء، تاركاً تراتيله تمتد عبر البحر.

وقبـل أن يمضي اليـوم التـالي، الثـلاثـاء المقدسة، كنا قد تركنا بحر ايجـه خلفنـا، ودخلنا إلى الأناضول. على يميننا افريقيا التي أصبحت لا تبين، وعلى يسـارنـا، خلف الافق، قبـرص. كان البحـر متلألئاً، هادئاً، دافئـاً، وكـانت هناك فراشتان سوداوان مزركشتان بنقاط حمر، تطيران فوق حبـال السفينة، وطائر دوري سغب، يطاردهما، وقد انقض الدوري على احداهما وأكلها، مما حدا بفتاتين صغيرتين للتقزز والصراخ، فصاح بهما احد الرجال بشدة:

ـ توقفـا، هذه هي طريقتـه للحفـاظ على كينـونته، ماذا تعرفان عن الرب، هل تعتقدان أنه مجرد سيدة رقيقة؟

وأنـا أدنـو، كان ينتـابني شعور عميق، تجاه هذه الارض التي لوحتها الشمش، هذه الارض التي توهـج منهـا ذات يوم، ذلـك النور الذي انبثق

من بيت صغير وضيع في الناصرة ليضيء، ويبعث الحياة والنشاط في قلب البشر. وها أنا أتذكر رحلة الحج الاخرى التي قمت بها الى موسكو منذ أشهر قليلة، رحلة الى القدس الجديدة، قدس القلوب الهائجة الثائرة. أتذكر الثلج، الخطوات الساكنة التي لا حصر لها، الضجيج، والطائرات الرمادية في السماوات، وتحتنا على الأرض، جمع كالنمل من البشر: عمال وفلاحين، احدودبت ظهورهم من العمل والالم، ومن كل الاجناس: بيض، صفر، وسود، تجمعوا كلهم حول ضريح مقدس آخر.

هذه الايام تجد الحياة نفسها قد عادت الى نفس الحالة من الانحطاط التي كانت سائدة منذ ألفي سنة، لكن المشاكل والقضايا التي تسحق العقل والقلب هذه الايام، أقسى وأعقد، والحل أكثر صعوبة ودموية. في ذلك الوقت، ظهر على الأرض، صوت عميق القرار، رقيق، فجعل الخلاص ينبثق على هذه الارض كينبوع رباني. أما في هذه الايام، فان كلمة المسيح لم يعد لها نفس الوقع، ولم تعد قادرة على كبح جماح الروح، أو توجيه الافعال. لقد فقدت تأثيرها. لكن ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أنها لم تعد تملك مقومات حقيقتها. عندما يقولون للجماهير العاملة (هذه الجماهير، مقدر عليها هذه الايام أن تجد إجابة جديدة) ان هذه الحياة الارضية، لم يعد لها أية قيمة، وانها ليست سوى اعداد من أجل حياة مستقبلية بعد الموت، نجد أن هذه النقطة تتناقض كلياً مع خبراتنا الروحية الحديثة. وحاجاتنا المعاصرة. لا يستطيع أي انسان يعيش هذه الايام أن يصدق ذلك. ولهذا، فان هذه العظة لم تعد تملك مقومات حقيقتها.

نحن لم نعد نهتم بواجب الانسان في الحقب التاريخية الماضية، ولا نكترث لذلك. (الواجب يعني الصيغة التي يقابل بها الانسان فضل الله) ولم نعد نكترث بما سيكون عليه الواجب في المستقبل البعيد، ما يهمنا هو: ما هو الواجب الآن؟ هذه هي مصيبتنا الكبرى، فاذا اتخذ الرب في يوم من الايام صيغة ديونيسيوس*، أو يهوة، أو المسيح، أو آريوس** أو ابراهيم، فهذا لا يشكل لنا هذه الايام سوى قيمة تاريخية، أما الصيغة المعاصرة له، فهي ما يجعل قلوبنا تَشْرَقُ بالدم والدموع.

الصيغة الحديثة للرب، هي ان تتقولب هذه الجماهير داخل مصانعها وأكواخها، وقلوبها الميتة، التي تكاد تختطف من صدورها، يجب أن يشبه الرب صيغتهم الخاصة. يجب أن يشبه العمال الذين يجوعون ويعملون، ولا يحتملون الظلم كثيراً فيثورون عليه. يجب أن يكون زعيماً كزعماء الاناضول القدماء. يرتدي حذاء من جلد الماعز، ويضع بلطة بشعبتين في حزامه الجلدي، مثل جنكيز خان الذي قاد القبائل الجائعة، كي ينهب خزائن المتخمين، ويسبي نساء العنينين*

والآن، ما هو الهدف الذي انطلقنا من أجله الى القدس؟ وهل لدينا كلام أكثر من هذا لنقوله، ونتحدث به مع ابن مريم.

مع هبوط الظلام، حين كانت الشمس تغرق في مياه البحر الهادئة، خلفنا، والقمر يطلع من جهة الشرق ساكناً وحزيناً كقناع الموت الذهبي، قام احد القساوسة ليقيم احتفالاً يليق بالصلاة المقدسة للثلاثاء المقدسة. لقد سمعت صيحة (كاسياني)* الشهوانية المؤثرة في حضرة الله، عندما

سنحت لي الفرصة للدخول إلى الكنائس الجبلية الريفية الصغيرة في فصل الربيع. كان النواح النسوي المكروب ساحراً وفتاناً، وأنا أنظر من خلال النوافذ ذات الصلبان، باتجاه الريف المفتوح والممتد خلفها لكن هذه الليلة، فإن نواح المرأة الذي جاء على شكل صيحات مؤثرة، تدعو الله أن يحميها من زوجها الذي سقط في البحر ليتحرر من احزانه. كان مختلفاً. البحر يثير القلب، يطلق العنان للقلق والأسئلة التي يهدئها العشب الأخضر الندي.

كنت أنظر إلى الناس المحيطين بي، كان الأثرياء الذين يرتدون الملابس الأنيقة غير مبالين، لا يظهر عليهم أي احساس بالفرح أو الحزن، لقد نهضوا، ثم عادوا للجلوس، وهم ينظرون إلى ساعاتهم، أما الفقراء الذين كانوا يجلسون في الصف الثالث، فقد كانوا ينصتون باهتمام، كانت وجوههم مشرقة، وقلوبهم تكاد تثب من بين ضلوعهم، وخلال لحظات كانت وجوههم، وأيديهم، حتى ملابسهم البالية تتورد بفعل هذا الاستغراق الإلهي. وحين ينتهي هذا الأسبوع المقدس، الأسبوع الذي يعاني فيه الرب كما يعانون، فإنهم سيعودون مرة أخرى، إلى أيامهم المظلمة التي لا حياة فيها.

وعندما تربع البدر في كبد السماء، استؤنفت الأحاديث الجانبية، كانت امرأة عجوز تحدث حفيدتها عن حياة وآلام المسيح، وكانت الحفيدة الصغيرة تستمع إلى تلك القصة المروعة، وكأنها تستمع إلى قصة خيالية، كانت ترتجف وهي تتابع ذلك الأمير الذي يسير نحو حتفه،

أمـا أنـا فقـد كنت ألتف بعبـاءة الظلمة واستمع ، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أفهم فيها سيرة موت المسيح بهذه البساطة وهذا التأثير.

لقد قال الحاخام نحمان* ذات يوم :

ـ عنـدمـا تخطر ببالي فكرة ، فإنني أتركها تتفاعل داخلي بقوة وبلا ارادة ، لكنني حين ابدأ بقصها على الآخرين ، فإنها تكف عن كونها مجرد فكرة ، وتتحول إلى اسطورة.

وهـذا هو ما حدث بالضبـط ، فهـذه الجدة ، ذات القلب المغرق في بسـاطتـه ، هي وحدها القادرة على جعل هذه السفسطات الدينية التافهة ، تتفاعل داخلها ، كي ترتقي بها إلى مستوى الأسطورة.

عنـدمـا انزويت في حجرتي ، وتمددت أخيراً على سريري استعداداً للنـوم ، سمعت حديثـاً غيـر متـوقع ، لقد كان عدد من الرفاق المسافرين ، منشغلين في جدل حاد في مخزن السفينة ، أحدهم ، والذي توحي نبرات صوته أنه ما يزال في مقتبل العمر ، كان يتحدث بحماس ، وبتفكيره الضيق عن هذا الهوان الغريب الذي ألقى بظلاله على حياتنا الاقتصادية والاجتماعية :

ـ أكاذيب ، سرقات ، مظالم ، عامة الناس يعانون ، والكبار يزدادون ثراء ، النسـوة يبعن أنفسهن ، والـرهبـان عديمو الايمان ، هنا ، على هذه الأرض توجـد الجنـة والنـار ، هنـا ، في هذه الأرض ، يجب أن نطـالب بالعـدل والسعادة ، لأنه لا توجد حياة أخرى.

أما الآخر، فقد كان يتحدث عن روسيا، يتحدث بشكل تخيلي مثار، كل شيء هناك يبدو صحيحاً، ومقدساً، وكانت كلمات مثل «البروليتاريا»، «صراع الطبقات»، «لينين» كأنها رموز وثنية مقدسة. وكانت تخرج من احشائه كأنها نار رسولية، تصلي شفتيه.

وكانت الصرخات تتعالى:

- نعم، نعم، أنت على حق. النار والفأس. . .

وكدت أميز صوت الشماس الخارق، الذي كان مسافراً معنا، والذي كان يريد الاحتجاج على هذا الكلام، ولكن صوته غرق في خضم هذه الصيحات والضحكات. أما صوت الرقص الصامت، فقد أخذ يعلو.

رفعت رأسي بسرعة عن الوسادة، وأخذت استمع باهتمام وشوق. وقد تخيلت في تلك اللحظة، أن مخزن السفينة، سيكون شبيهاً بالمداخن الديماسية* الجديدة. حيث يتجمع رفيق أيامنا المعاصرة، للتآمر على تدمير الأرض. وقد تغلبت بصعوبة بالغة، على صيحة ابتهاج كادت تفلت مني، فنحن في طريقنا لعبادة الوجه المألوف للرب. هذا الوجه الرقيق، وجه الشهيد المليء بالوعود، وبالثواب المستقبلي، بعد الموت. كانت النسوة الهرمات قد احضرن الهدايا لتقديمها له: شموع، هبات فضية، وصلوات حميمة حارة. أما الكفرة، الذين يحتلون الطابق العلوي من السفينة، فلم يكترثوا بهذا الأمر، بل كانوا يتحدثون في شؤون المال والسياسة. وفي الأسفل، في مخزن السفينة، كنا نتخاطف تلك الهبة العظيمة، تلك النطفة الجديدة، لجنين الرب، الذي لم يتكون بعد.

لقد شعرت مرة أخرى، باحساس داخلي عميق، بهذا العصر الزائل الـذي نعيش فيـه، هذا العصـر الـديني الحـاني، في طريقه إلى الزوال، ليحـل محله عالم آخـر، قاس، يطفـح بالـدم، والـوحل، والنار، ويضج بالحيـاة. عصـر يبـزغ من الأرض، ومن قلوب البشر. ويلقي بظلاله على سفننا ورحلاتنا.

في الصبـاح، ومن خلال الضبـاب الحليبي الـرقيق، أخـذت أرض الميعـاد تلوح في الأفق البعيـد. في البـدايـة ظهرت كشريط فوق البحر، وبعـد ذلـك لاحت الجبال المنخفضة لـ (يهودا) كانت رمادية في البداية، ثم اكتست بلون أزرق شفـاف. وأخيـراً غرقت في نور النهار الشديد. وقد ظهـرت حيفـا داكنـة بجـانب الرمال البيضاء امامها. وعلى يسارها ظهرت المدينة اليهودية الجديدة تل أبيب «تل الربيع».

بدأت نوارس البحـر السغبـة تحـوم فوقنـا، وأخـذت اسراب الفراش ترفـرف فوق الجبـال. ونهضت النسـوة الهـرمـات على اقدامهن، وأخذن يجمعن صررهن، ويـربطن المنـاديـل السـوداء حول رؤ وسهن، ثم قمن برسم اشارة الصليب، وانخرطن في البكاء.

رمـال، حدائق، نسـاء عربيـات ذلقـات اللسـان، اشجار تين بري، قطـوف تمـر، سيـارات القبـار تتـرك خلفهـا وهي تصعـد باتجـاه المـدينة المقـدسـة. وقلوب تدق بعنفٍ. وفجأة ظهـر أمـامنا ذلك المنظر الحجري المتجهم، الـذي تعـرض لحـرارة الشمس الشـديـدة، والتبخر. أرصفة، اسـوار، ابـواب حصينـة، جلابيـات بيضـاء، شالات خضر وحمر، رائحة

التـوابـل الشـرقية، فواكه منثورة، عرق بشري، صيحات هائجة منذ آلاف السنين، اشباح تخرج من قبورها، وحجارة مروية بالدم، كل هذه الأشياء كانت تطلق صيحاتها، وكأنها قد عادت إلى الحياة من جديد.

---

* ديونيسيوس: الخمر والمرح (القصف) عند اليونان.
** عقيدة آريوس تقول بأن الابن ليس من جوهر الأب!.
* العنين: هو الرجل العاجز جنسياً.
** كاسياني: شاعرة رومانية، من القرن التاسع الميلادي.
* الحاخام نحمان: مؤسس فرقة «الحاصدين» الدينية في براتزلافر (بولندا) وهو حفيد الحاخام اسرائيل بعل شيم توف، المؤسس الأول للفرقة.

* المدفن الديماسي: مدفن في قبو أو سرداب.

القـــدس

صباح يوم السبت المقدس، كنت أقف عند مدخل القبر المقدس. وكانت كنيسة القيامة تطن كأنها خلية نحل عظيمة. وكان المسيحيون العرب الغائمو العيون، المنفعلون، الذين يطلقون الصيحات، يرتدون الطرابيش والجلابيب الملونة، ويتسلقون السطوح القرميدية. أما الرجال والنسوة، الذين قضوا ليلتهم هنا في هذا المكان، فقد كانوا يتمددون على حصر من القش، وسجاجيد، وخرق، تحت أعمدة الكنيسة. بانتظار تلك اللحظة الرهيبة، التي أصبحت الآن في متناول أيديهم. تلك اللحظة، هي التي يبزغ فيها النور الرباني، من مظلة هذا القبر المقدس.

كانت اباريق المياه الرمادية، بزخارفها العربية البرتغالية، والمشروبات الروحية، والشربات*، وعصير الليمون، تنتقل من يد إلى أخرى، خلال هذا الجمع الذاهل الذي يخيم أمام الكنيسة.

وكانت اباريق القهوة تغلي على المواقد المتنقلة تحت الايقونات العظيمة، والامهات يكشفن عن صدورهن، أمام هذه الجموع الغفيرة، ليقمن بارضاع اطفالهن، وكانت رائحة العرق البشري النتنة تملأ الجو. وكانت رائحة الشمع المحترق، والزيوت، ورائحة شعور النساء، كلها

تصـدر رائحـة كرائحـة المـواشي ، وتبعث على الغثيان . أما الرائحة النتنة التي تشبـه رائحـة المـاعـز التي تنبعث من الـرجـال العرب ، فقد كانت لا تحتمـل . ضحكـات ، دموع ، تنهدات ، والرجال ، بعضهم يرتل ويترنم ، والبعض الآخـر ، يقضـون أوقـاتهم مع زوجاتهم تحت البطانيات الملونة ، في الـزوايـا المظلمـة للكنيسة ، وحينما تعبر من خلال هذا الجو الخانق ، تفاجأ بالضحكات التي تترقرق من الفتيات الصغيرات اللواتي يدغدغن .

سيد حبشي نحيل أهيف ، كالنخلة ، كان يتمشى بين الجموع . وهو ملفوف بعباءة حريرية خضراء ، وامرأة عربية جاءت وركعت قبالتي ، كانت امـرأة سمينـة ، كثيـرة الشحم ، بعينين سوداوين كعيني حيوان نهري . كان نهـداهـا المتـرهـلان يلامسـان بطنهـا . وكـانت الأنفاس تتردد واحداً بعد الآخر. وكانت الروائح المختلطة تهب عليّ . بعضها يحمل رائحة الخمر والثـوم ، وبعضهـا يحمـل رائحة الشموع المحترقة والبخور واللبان ، وبين لحظـة وأخـرى كان يداعب انفي شذا رائحـة زهور الربيع السماوية . فقد جاءت احدى الفلاحات وهي تحمل باقة من الزهر، ووضعتها على القبر.

وفجأة ، اندفع حشد من الرجال ذوي الشعر الأسود ، الذين يرشحون عرقـاً ، لينضمـوا إلى هذا البحـر الهـائج من المتعبدين . لقد جاءت موجة جديـدة من العـرب لتصب في الساحة ، وكان يحيط بكل منهم ستة أطفال من جميع الجوانب، وكان الأطفال يحملون فوانيس وشموعاً كبيرة بحجم اجسـامهم . وقـد قام الـرجـال الأشـداء المعتـدلـون من الانجليـز، برفع عصيهم إلى الأعلى لحمـايـة رؤ وسهم . وقـد تقدم رجل عجوز وهو يرغي

ويزبد، واعتلى اكتاف هذا الحشد البشري الذاهل، وأخذ يقفز من كتف إلى كتف وهــويلوح بسيفيــه المشــرعين، في الهـواء. كان يرقص فوق الأكتــاف، ويطلق صيحـاتـه، ولـم يكن يظهـر منـه سوى بيـاض عينيـه، والشموع التي تحيط بخصره، والتي تنصهر وتقطر بفعل الحرارة الشديدة.

بعد برهة قصيرة، نزل الأرمن إلى الساحة، كانت راياتهم ترفرف في الهواء، .وجوقة المرتلين من الفتيان الذين يرتدون القمصان الصفراء ترسل أصـواتهـا في هذا الجـو المـزدحم. بعد ذلك جاء دور الأقباط، والربان، والأحباش، ورعاة البدو، والموارنة. وكان هناك خمسة أوستة من الروس ذوي الشعـر الكتـاني جاءوا من تلك الأقـاليم الـروسية الشاسعة. وبعض الأمريكيين المتجمدين من البرد، والذين كان منظرهم يثير السخرية وسط هذا الأتـون الآسيـوي المتـوهج. بعد ذلك تقدمت نسوة بيت لحم، وهن يرتـدين عصـابـات الـرؤوس المخـروطيـة الطـويلة. وشـالاتهن البيضاء النـاصعـة. ورمين بأنفسهن داخـل هذه الأمـواج المختلطـة الألـوان، في تناغم منعش وعنيف، يشبه احتفالات عودة القوات المحاربة.

فاضت السـاحـة بالمتعبـدين الـذين تسلقوا الأعمدة، واحتلوا مقاعد الكنيسـة الطويلة، وأوشكوا على الدخول إلى القسم المخصص للنساء. وكانت العيون كلها تتطلع باثارة، وترقب، ووله، وكانت كلها مسمرة على مركـز الكنيسـة، على تلك المظلة الصغيـرة التي كان قد دخلهـا البطريرك للتو، والتي سينبثق منها بين لحظة وأخرى، ذلك النور الرباني.

أحـد الفـلاحين، كان قد عصب رأسه بأشرطة من وبر الجمال، وقفز

على كتفي أحـد العـرب، وأخـذ يلّوح بشمعـة عيـد الميـلاد الضخمـة البيضـاء، التي تتطـايـر الأشـرطـة المـربـوطة بها، في الهواء. وأخذ هذا الفـلاح، بشكـل مسعـور وهـائـج، يدعـو المسيـح للظهـور. وقد أحست الجمـاهيـر بهـذه الـروح البـربـرية تتغلغل في اجسادها، فأخذت الأذرع السمـراء تضـرب بعنف، وأخـذت الأسـاور التي تزين معـاصم النسـاء تصطخب، ولمعت أظـافـر النسـوة المطليـة بالحنـاء كقطـرات من الدم. وشخصت الـرؤ وس كلهـا: الأنـاضـوليـة، والعربية البدوية، والحبشية، وأخـذت تطلق صيحـاتها وضحكاتها وتنهداتها، وقد أغمي من جراء ذلك على رجـل في ريعـان الشبـاب، فسـارع الجنـود إلى حمله وتمـديده في الساحة. أما العجوز الماروني الهزيل الذي يرتدي عباءة ناصعة البياض، ويتمنطق بحزام أحمر، فقد سقط على السطح القرميدي، والزبد يتصاعد من فمـه، ممـا حدا إلى انـدفاع موجة غوغائية من النسوة الهرمات اللواتي وشمن اذرعهن وذقـونهن بالصلبـان، والخيـلانـات* وفقـرات من الكتاب المقـدس، والقين بأنفسهن فوقـه، وشـرعن في صراخ شبيـه بصـراخ المصابين بالصرع، فقد اعتقدن باحساسهن الفطري، بأن روحاً رهيبة لا مرئية، قد حلت فجأة في هذا الجسد المرتعش المتشنج.

رقعة المرمر العظيمة، التي تغطي قطعة الأرض التي مدد عليها السيد المسيـح بعـد قيامته عن الصليب، كانت قد مسحت وحتت بفعل القبل. فمنـذ قرون عديـدة، وهـذه الحشـود البشـريـة تنحني فوقهـا، تقبلهـا، وتسحتها، فهي تقوم بتمرير كفوفها برفق فوق المرمر، ومن ثم تقوم بتمريغ وجـوههـا وأعنـاقهـا فوقـه ثلاث مرات. وكما يقول بوذا، فإنه لو مرّت يوماً

خلال كل ألف سنة ريشة من ريش الطاووس على جبل غرانيتي، فإن هذا الجبل سيحت، ويختفي. وهذا هو ما يحدث بالضبط هنا. فهذه الأقدام التي لا تعد ولا تحصى للمؤمنين، قد حتت قرميد الكنيسة، والساحة، وقبر المسيح، وطريق الجلجلة، والصخرة التي دحرجتها الملائكة، لقد امحى كل ذلك بفعل شفاه الناس.

راهب ارثودوكسي، كان يرسل نظرات حاقدة صفراوية، نحو الاقباط والكاثوليك، والأرمن، انحنى علي، وقال لي بصوت مرتعش:

ـ هذه الكنيسة كلها ملك لنا نحن الأرثودوكس، كل الأماكن المقدسة لنا، وهؤلاء المارقون الذين لعنهم الله، يريدون أن يأخذوها منا. ولكننا نقوم بتسييج كل المناطق المتنازع عليها بالعوارض المعدنية، كي لا نسمح لأي انسان أن يدخلها. أنظر ماذا أعطينا للأحباش، تلك الصخرة فقط، ولن نعطيهم بوصة واحدة أكثر من ذلك. والآن سنلقي بأولئك الأرمن خارجاً، لقد تجاوزوا مناطقهم، وهم يقفون الآن على أرضنا. كل ما قاله لك أولئك الكاثوليك زيف وافتراء. كل اماكنهم الدينية مزيفة ومزورة، وكم أرجو الله أن يأتي ذلك اليوم الذي نستطيع فيه أن نلقي بهم إلى الخارج.

أجبت:

- أرجو من الله أن يأتي ذلك اليوم الذي تمتلىء فيه قلوبكم بالحب، وأرجو الا يطول انتظاركم لذلك النور الرباني الذي لا يأتي ليشعل

شموعكم فقط، بل ليضيء عقولكم المعتمة، المعادية للمسيح والمسيحية.

مرت موجة من الفلاحين بيننا، وفصلت بيننا، كانوا يدلعون ألسنتهم، يصفرون، ويضحكون، وكانت عيونهم متآكلة منفرجة بفعل التراخوما، وكانت أسنانهم بيضاء ناصعة. كان الرجال طوال القامة، نحيلين، رشيقين، أما النسوة فقد كن سمينات، قبيحات، تتدلى على جباهن صفوف من القطع الفضية. وشفاههن تبرق بالحماس.

أما الآن، فقد بدأ إيقاع جميل، يسمع بالقرب من المذبح. لقد أخذ المساعدون يدقون بإيقاع منسجم بعصيهم الفضية على القرميد. ثم تقدموا ببطء، وفتحوا الممر. فدخلت جوقة الأطفال المرنمين، وتقدمت، ثم دخل المدنيون، وتبعهم الاساقفة بثيابهم الكهنوتية المذهبة. ودخل البطريرك بلحيته البيضاء الثلجية. وعينيه المجهدتين، ثم ظهرت الاصابع المخروطية على عتبة الكنيسة.

وبدأت الاحتفالات، فقرعت الاجراس، وهبت رياح الطهر والقداسة فوق الرؤوس المختلطة، فشعرت بصورة أكبر، بحرارة هيبة الرب في قلوب البشر. فقد ارتفعت الايدي، ورقصت الاقدام، ووثبت القلوب، وعلت الصيحات للرب المخلص. والقت روح لامرئية ظلالها على الاجواء. وقد تأكد لي في ذلك الوقت، أنه حتى لو لم يحضر الرهبان والمثقفون الى الكنيسة، فان الفلاحين كانوا قادرين وحدهم على بعث الرب. كانوا قادرين على إجباره على التكون في السماء، ومن ثم النزول

الى الارض، وبـاقصى سرعـة، كفكـرة أو خيال. ولكنه سينزل هذه المرة بهيئتـه وصـوتـه. ليقدموا له السمك والعسل، وسيكون قادراً على الأكل.

وسيكونون قادرين على لمسه وملء أيديهم به. وعندما يسير على القرميد، سوف يتردد صدىء خطواته.

احد الفلاسفة الهنود قال:

ـ ليس للرب آذان، فهــو لا يسمــع، ولكن الانســان الغــارق في الألم والمعـانـاة، يصـرخ، فيضطـر الله، بالقـوة، ان يخلق لنفسه آذناً، ليسمع ويلات البشر.

وأنا أنظر الى الفلاحين هذا اليوم، أدركت الطريقة التي خلق بها قلب الانسان، السموات والارض، والطريقة التي أنزل بها هذه القوى اللامرئية وكساها جلدها، ومنح هذا المدى الاخرس صوته.

انحنى البطـريـرك ودخـل المظلة المقـدسـة للقبر المقدس، وحده، وطغى السكون على هذه الجموع المحتشدة الصاخبة، ورفعت الامهات أطفـالهن على أكتـافهن ليـروا ما يحدث، ووقف الفلاحون فاغري الافواه يراقبون، أما الاوروبيون فقد وقفوا على رؤ وس أصابعهم وأخذوا يراقبون باهتمـام وتـرقب. كانت الثـواني تمـر بطيئة ثقيلة على هذه الرؤ وس. وقد توتـر هذا الجمـع الصـاخب كمـا يتـوتر جلد الطبل، وفي الحال بزغ ذلك الانف من البـاب السفلي للقبـر المقـدس، وظهـر البطـريـرك وهو يحمل مجمـوعـة من الشمـوع ذات الضـوء الابيض، فانتشر الوهج، حتى غطى الكنيسـة من أرضيتهـا حتى سقفهـا، وغـرقت الكنيسـة فيما بعد بالشموع

المشتعلة، فقد اندفع الجميع باتجاه البطريرك، للوصول الى الضوء، بعضهم كان يحمل شموعاً سميكة بيضاء، والبعض الآخر، كان يحمل ثلاثاً وثلاثين شمعة صغيرة بيضاء، ووضعوا أيديهم فوق لهب الشموع، ثم مسحوا بها وجوههم وصدورهم، ثم اندفعوا خارجين الى الساحة، وهم يحيطون لهب الشموع المشتعلة بأيديهم، وهرعوا الى بيوتهم.

خلت الكنيسة من البشر، خلت من هذا الحشد الجماهيري المذهل، وهذه الجموع الحاشدة الهائجة، وقد بدت لي هذه الجماهير المتعددة الاجناس كحلم غريب لا يصدق، لكنني حين انحنيت، وأنا أقوم بجولتي المنفردة داخل الكنيسة، أدركت أن هذا المشهد الاناضولي الرهيب كان حقيقياً، فقد رأيت على الارضية القرميدية، بقايا آثار هذا المشهد المروع: بذور القرع، قشور البرتقال، أنوية الزيتون، وشظايا الزجاجات المكسورة.

* الشربات: شراب مثلوج من عصير الفاكهة المحلى، واللبن.
* الخيلانة: جنية البحر.

فصحيــة*

بعد ظهر عيد الفصح، قمت بجولة في كنيسة الانبعاث، التي كانت تتوهج بالأضواء، وكانت زهور الليمون المبعثرة المسحوقة، تملأ الجو برائحة حمضية نتنة. وكانت امرأة عجوز ضئيلة الجسم تنحني أمام الحجر وتبارك مقتنيات مهر ابنتها بالصليب، أما ابنتها الشاحبة الوجه، فقد كانت تقف الى جانبها، وتقوم بتسليمها هذه المقتنيات واحدة بعد الاخرى، وكانت الام الغارقة في الحزن، تمررها فوق الحجر المتوهج، وهي تهمهم بتعاويذ سرية قديمة. لقد كانت تأمل أن يصبح قميص النوم المنسوج من خيوط سميكة، ثوب زفاف. وهكذا توالت المقتنيات: جرابات أناضولية زهرية اللون، وسائد، ملاءات، مناشف، أساور نحاسية، وأقراط وسلاسل فضية... وكانت الفتاة الشابة، تقف بلا حراك، كحيوان لم يأت دوره بعد. تناول مقتنيات العرس المباركة، من يدي امها العجوز، وتضعها مباشرة وبعناية فائقة، في حقيبة سفر صفراء مصنوعة من الصوف.

وكان الرهبان الافرنجيون يمرون بالقرب منها، مجهدين: أرمن بانوف خطافية، وأحباش نحيلون، يتوقفون قليلاً عند الايقونات، وكانت

لاجسادهم الغارقة في العرق رائحة القمح المشوي .

وتحت قوس مقـــام بين عمـــودين ، كان يقف راهب عربي ، ضئيـــل الجسم ، نحيف ، ذو لحية خفيفة سوداء ، يسند ذقنه على عارضة عكازه ، ويحـدق في الارضيـة القـرميـديـة ، بعينين جامـدتين ، وكانت امرأة عربية شابـة ، ملتفـة بعباءة سوداء ، تحمل شمعة عيد الفصح البيضاء ، تقف الى جواره ، وتبكي . كانت هي الاخـــرى نحيلة ، ذات عينين واسعتين ، كانت تتحـدث بلطف ، وبحب مع ذلـك الـرهب الشـاب ، دون ان ترفع بصرها نحـوه ، أمـا أنـا فقـد استندت الى احد الاعمدة ، واخذت انصت ، ولفترة طويـلة ، لنـحيـب تلك المـــرأة الخفي الغـــامض ، كنت أنصت لذلـــك النحيب ، وكأنني استمـع لخـريـر جدول صغير ، يشق طريقه بصعوبة نحو البحـــر ، فوق الحصى البلوري الشفـــاف فلم أكن قد أحسست من قبـــل بقلب يذوب وينصهر ، في بوتقة الحزن ، كانصهار قلب هذه المرأة ، الذي ينصهر وينساب بهدوء تجاه الرجل .

كانت هذه هي الغبطة الوحيدة لي هذا اليوم ، لذلك فقد أخذت بعد ذلـــك ، أتمشى جيئـــة وذهـابـاً في الكنيسـة دون جدوى ، فقـد أحسست وبشكـل مطلق ، بعـدم وجـود أيـة اشارات لاي انبعاث داخلي ، وتذكرت جبل Athos ، وعهد الايمان الشديد الذي قطعته على نفسي .

ذهبت إلى جبل Athos كي أعيد الهدوء والاطمئنان الى قلبي ، ولأرى تلك الصحراء المشرقة ، لانني أنا أيضاً كان يتملكني إحساس بأنه عندما يهبـط الظـلام ، وفي اللحظـة التي تغـرب فيها الشمس ، سيكون بإمكاني

استقبال الرب على عتبة البيت. كانت نيران كثيرة لا حصر لها تشتعل داخلي: شهوة يعجز الحديث عنها تجاه المرأة، الرب، والافكار، ولم أكن قادراً على التمييز بين هذه الرغبات، فلم تكن أية واحدة منها قد اتخذت شكلها الخالص بعد، كنت أريد أن أبعث القلق والتغيير داخلي، وبأقصى ما أستطيع، كنت أريد أن أبعث كل القوى الطبيعية، والمواريث القديمة، والانفعالات الجديدة. وفكرت:

ـ «آه، الحب والهدوء، سيوفران لي كل شيء، نعم، انهما القوتان البدائيتان اللتان ساعدتا الله ساعة الخلق، آه، ما أجمل أن تبقى وحيداً، حراً، بعيداً عن روتين المجتمع المثير للضجر، وخارج حظيرة هذا القطيع البشري، ما أجمل أن تسير وتسير، ولا ترى شيئاً سوى الشمس، والبحر، والصخور، وتحس ما في الداخل يرفرف، كورقتين متفرعتين من شجرة الله العظيمة».

وظهرت الاديرة البيزنطية أمامي، مرتفعة فوق الامواج، متألقة وباردة، كالصخور التي تظهر فجأة من الماء، وتظل تقطر، وعلى شاطيء البحر، بالقرب منها، ينحني الرهبان وهم يجرون بقوة الشباك المملوءة بالسمك، وعلى بعد مسافة قصيرة، قارب صغير، كان قد جرّ الى المسفن*. كانت مجاذيفه ترتاح عل صوره، وهو مستلق في منعزله ذلك، يستحم بأشعة الشمس.

«يا لها من معجزة، ويا له من منعزل، ويا لها من قدسية».

هذا هو ما فكرت فيه، وأنا أتسلق المنحدر باتجاهها، ثم وأنا أدخل

الـديـر الأول، وأخطـو فوق عتبته الخربة، متقدماً نحو الساحة الخارجية، تغمرني موجة من دفـء خفي غريب.

وأطلقت صيحة مكتومة:

ـ «إلهي، أيـا كنت، ساعـدني كي أسمـو بروحي فوق كل هذه المتـع والمسرات، وسـاعـدني في السير في طريق الالـم ونكران الذات، من أجل الوصول الى أسمى درجات السعادة.

كانت الكنيسـة المعتمة الباردة تزدحم بالقديسين والملائكة: حمائم حجـريـة على قمم الاعمدة، حروف مجدولة، رؤوس أكباش، وعرائش من عنـاقيـد العنب الحجـري، آنـذاك، أحسست انني محـاط بالارواح الخفية والملائكة، وشعرت بأن الساروفيم* يهبطون من القبة ويتلمسونني.

كانت عينـا مريم العـذراء، في تلك الظلمـة الباردة، تشعان بالرحمة والشفقـة والأسى، وكـان ذقنهـا الـذي يوحي بالقـوة، يتورد في ذلك الجو المعتم العابق بالبخور.

وقفت في حضرتها وقلت:

ـ غليكـوفيلوسـا*، يا سيدة البحر؛ يا قلب الجنس البشري، الذي وسع الله، الـذي لـم يسعـه عرش السمـاوات والارض، أيتهـا المأثرة العظيمة، أيتهـا المـوزيـة** العاشرة، يا مريم العذراء البكارة، يا من حملت صرخة الخطـر، كحـارس طليعي، يدرك عن بعد حشود العرب الذين يريدون أن يسحقوا النور السماوي. لقد ظهرت كقائدة عظيمة، تلوّحين

بالابيـلاتيكي*** والبيراكوكودونا**** وبالتسابراسيا***** الفضية التي كانت ترن، وبصـدرك الطـاهـر الـذي يشـرق كالبدر لحظة تمامه. إن كل الـرجـال الشبـان سوف يثبـون ويقفـون على أهبـة الاستعـداد لقطف ثمار السعـادة من الـرب ومن المـوت، وسوف يندفعون خلفك أيتها الامازونية* لانـك تثـورين داخـل قلبي كنـايكي** مسيحيـة، لا تخشى الدم، وتتبع بخطى ثابتة، إله الحرب على الأرض.

نطق قلبي بهـذا الكـلام، وأخـذ يرقص، وأنـا أتنقل من دير الى دير، كنت أريـد إختيـار أقسى هذه الاديـرة، وأكثرهـا صرامة، لانني أنا أيضاً، كنت أريـد أن أستكمـل زهـدي، لفتـرة قصيـرة من الزمن، لوقت طويل، وربما الى الابد، لم أكن أعرف، كل ما كنت اعرفه، أنه يتوجب علي أن أبقى في هذه العزلة التامة، وهذا الصمت لشهور.

لقد خصصوا لي دير برودروموس، وهو معبد منعزل يطل على البحر، في جرف مهجور، لا ماء فيه ولا أشجار، يصله بشاطيء البحر ممر مشاة منحـدر، وبعـد مسيـرة ساعـة كاملة كنت أقف على بابه. وقد خصص لي صومعتان، وأطلال مصلى مغطى بالجبص. وكان برودروموس يقف خلف العذراء في احـدى الايقـونـان على يمين القـاطـع الايقـوني*، كان يبدو خضـر ونحيـلاً، مثـل جرادة، بعينين صفـراوين غريبتين، حيث يخيـل لمرائي أنه يقف على كعبيه، أي أنه لم يكن واقفاً، بل يخيل إليه أنه يقفز ن شجرة الى اخرى، ويخيل للرائي أيضاً، أنه يرى لسانين عظيمين من للهب، وجنـاحين عظيمين نابتين في جسـده، وهذا الجسد النحيل يظهر

لنا وكأن النار قد دبت فيه، فبدأ يشتعل، وبعد أن دبت فيه النار، أخذ يقفز ويثب، كي يحرق العالم كله.

لقد قضيت الايام الأولى القليلة لي، وأنا منكب على عتبة الدير، أخطط لحياة الزهد والتقشف، وأنتقل بين التصورات، والحسابات المنطقية، والفروض الهندسية الحمقاء.

كان علي أن أجزيء نفسي الى معسكرين، العلوي والسفلي، المضيء والمظلم، الروح والجسد. وأن أشعل أوار الحرب بينهما، وقلت: يجب أن أقهر كل رغبات الجسد.

وبدأت أحدد النتائج:

- «اذا كان هذا الجسد يطلب النوم، فعلي أن أبقى ساهراً، وإذا كان يرد الأكل، فعلي أن أصوم، وإذا كان يطلب الراحة، فعلي أن أنهض لاتسلق الجبل. واذا كان يشعر بالبرد، فعلي أن أعري جسدي وأسير بين الصخور».

وشيئاً فشيئاً، أخذت أصوب نحو الهدف الأكبر:

- «عندما أقهر هذا الجسد، سوف أعود للروح فأقسمها الى معسكرين، علوي، وسفلي، انساني ورباني، وسوف أحارب هذه المتع الثقافية التافهة: الكتب، الفن، المنطق، والتعليم، وسوف أحارب القيم المعرفية الراسخة: العدالة، الرحمة، الصداقة، الصبر، والاحترام. واذا ما اتيحت لي فرصة اخرى من الوقت، سوف أسعى الى هدف أسمى،

الى فصـــل صارم جديـــد : أمـا الهبـوط مع الأمـل ، الـذي يعتبـر العـدو الأخير لي ، وأما الارتقاء مع النور الرباني ، الذي سوف يستغرقني في هذه الظلمة العميقة ، دون مكافأة .

لقـد مرت أيـام وليـال ، وأنا في هذا الكرب ، وفجأة ، وفي صباح أحد الايام الذي لم أدخل فيه أي نقاش مع ذاتي ، سمعت صوتاً ساخراً ينطلق بجانبي :

- إنك تموت .

أجبت محاولاً اغاظته :

- أنا لست بحاجة الى اذن منك ، نعم أنني أموت .

قال :

- أيها الممثل ، انت جد مرعوب ، وكسول ، أنت ترفض أن تواجه روحك بغيـر الخطـابة والبلاغة والصياح ، إنـك تموت ، وهناك ستجد راحة أكبر . فهـا أنت متجمـد من البـرد وجـائـع ، لم تر أحداً ، ولم يرك أحد . فما هي القيمة العظيمة التي تبغي تحقيقهابلا جمهور؟ وأي ممثل أنت اذا لم يكن لك معجبون يصفقون لك؟ لقد أصابني التعلق بك بالغثيان!

قلت :

- من أنت؟

قال :

- أنـا العين النـاضجة اليقظة فيك ، العين التي تراقبك ، وسواء أحببت أم

لم تحبب، تقدمت أم تراجعت، سعيت الى هلاكـك أم الى خلاصـك، فانني أسير معك بلا كلل أو ملل.

قلت:

- أنا لا أريدك، أنا إنسان من جلد وطين وروح، كلها في واحد، كلها في أنا، وهي تصل الى قلبي، وتصعد الى جبهتي، وتحترق، العزلة لن تمنح قلبي الهـدوء، ولن يستطيـع المسيـح أن يحفظ روحي أكثر من ذلك. لقد دعاني صوت قوي وأنا أتبعه، أنا لست ممثلاً، ولا أريد جمهوراً.

قال:

- أنـا لا أسألـك، انني داخلك، انني الفارس الذي يقودك، كل ما اريده هو ألا أمـوت، وألا تمـوت، أيتهـا الدمية الزائلة، الدمية المخلوقة من ماء وطين ونار وريح. كل ما أريده هو أن أخرج.

قلت: من أنت؟

قال: انني معك منذ سنوات عديدة، أيها البائس، ولكنك لا تعرفني.

وما أن نطق بهذه الكلمات، حتى بدأ الصوت الساخر الحزين بالتلاشي.

---

* المسفن: موضع تبنى فيه السفن وترمم.
* الساروفيم: ملائكة الطبقة الأولى الذين يحرسون عرش الله في المعتقد اليهودي القديم.

* عليكـوفيلوسـا : ايقـوـة ترينـا العـذراء وهي تلبس التـاج ، وابنها المسيح على يده اليسرى يداعب ذقنها .

** المـوزيـة : أحـد الإلاهـات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم في الميثولوجيا الاغريقية ، وقد جعلها كازانتزاكي الموزية العاشرة .

*** الابيـلاتيكي : سلاح مرصـع بالمسـاميـر كان يستعمله الحـراس الطليعيـون في الامبرطوية البيزنطية .

**** البيراكوكودونا : اجراس برونزية في القيثارات الكريتية .

***** التسابراسيا : واقي للركبة من الحديد كان يستعمله الجنود البيزنطيون .

* الامازونية : امرأة من المحاربات ، زعمت الأساطير الاغريقية ، انهن كن يقمن قرب البحر الأسود .

** النـايكي : آلهـة النصـر عنـد الاغـريق ، وتمثل عادة على صورة فتاة مجنحة تحمل باحدى يديها اكليلاً ، وباليد الاخرى سعفة نخيل .

* القاطع الايقوني : ستار عليه ايقونات ، ويحجز بين حرم المذبح وبُهْرَة الكنيسة .

جــامــع عمـــر

معجـزنا المسيحيين والاغريق العظيمتين، لمعتا في ذاكرتي واتحدتا بتآلف سري غريب:

في الأولى، نزل ملاك سمـاوي حيـوي، من السماء، وهو يحمل في يده زنبقة بيضاء، ولكن هذا الملاك فتن، وارتعش، واستدار بكليته باتجاه البـاب الـذي كان قد فتـح عمـا قليـل. وفي الثـانيـة، رأيت الاوزة، تلك المخلوقـة الـرائعـة، تخـرج من المياه الموحلة، وتتحول إلى أنثى ترتدي ملابس من العصـور المغـرقـة في القـدم. وهـذه المـرأة، تنحني بشكـل متهتك، متحرر، وبرعب على طول هذه الرقبة المتأرجحة، وترفع راحتي يديها نحو السماء، كمخلوق مأزوم، خجل، ولكنه غير قادر، وغير راغب على مقاومة حيوانيته.

وفي هذا اليوم، رأيت المعجزة الثالثة، فلم يهبط ملاك من السماء، ولم يخـــرج حيـــوان من الميـــاه المـــوحلة، وإنمـا، ولأول مرة على هذه الأرض، وبشكل انساني، أرى رجلاً يحمل «اخباراً سارة» لامرأة.

طفت حول مسجـد عمـر، وقلبي ينبض بابتهـاج، كطفل يقف جرف

صخـري . فلم آمـد قامتي باتجـاه السمـاء، لأن هذه الأرض تبـدو رائعـة بالنسبة لي، وهذا البلد الذي يخصني، قد صنع خصيصاً من أجل روحي وجسـدي . وقـد عدت بذاكـرتي إلى يوم آخـر، كنت اتجـول فيه، متعباً، وقلقـاً، في منطقـة اريبـان المحـاصـرة بالأكـراد في قلب ارمينيـا . كانت الأبـواب موصـدة، والشـوارع مقفـرة، والأطفـال، والنسـاء يبكـون خلف المصاريع المغلقة، كنت اتجول وحدي، مليئاً بالألم والسخط . وفجأة، وتحت شمس منتصف النهـار الحـارقة، مسجداً مقدساً آخر، يظهر بشكل غيـر متـوقـع امـامي، مغطى من اسـاسـاتـه وحتى قببه، بالخزف الصيني الأخضـر والأزرق، وبـالـزهور المرجانية . وفي الحال، شعرت بالدم يهدأ في عروقي، وبـذاكـرتي تنتعش، بدا كل شيء حولي رائعاً، وملائماً لي، في هذا الظل البارد بعد هذه المسيرة القاسية .

وهـذا ما حدث معي اليـوم، فبعـد أن أيـدت الأفكـار المسيحية التي تدعو إلى ازدراء الأرض، وتركها خلفنا، وجدت مسجد عمر، هذا، يوفق بين قلبي وروحي، ويغمـرني بالهدوء، كان يتألق تحت الشمس، ويرسل أشعته الملونة التي تبعث على الفرح والسعادة، كطاووس ضخم .

سرت بخطى واسعـة، وبسـرعـة، عبـر السـاحة المطلة على القدس القديمة . وطفت حول هذا المسجد المهيب الرائع لعدة ساعات، وكنت احـاول تأخيـر نفسي قدر الامكـان، قبـل الدخول إلى ذلك المكان البارد المعتم الذي يعتبر احدى المعجزات . وأخذت أنظر من خلال الكوى إلى المناطق المحيطة بالقدس . في البعد، ترتفع جبال مؤاب بهدوء، تتمايل وتـومض، ثم تختفي في غلالـة نور الشمس، وأمـامي يبـدو جبل الزيتون

جافاً وظامئاً، ومغطى بالغبار، وفي الأسفل تبدو المدينة متآكلة محتوتة، بفعل أشعة الشمس الحارقة، وتبدو منازلها الجرداء، بطاقاتها الصغيرة السوداء، كالجماجم. وقد مرّت قافلة من الجمال، واحداً بعد الآخر، تتمايل بايقاع واحد، فبدت وكأنها عصبة على الغناء، أو أنها انطلقت في مسيرتها هذه منذ آلاف السنين.

على هذا الجبل، تخيلت يهوه، وهو يقف بأنفه المنتفخ يتقبل القرابين، ويتشمم الدماء، فهنا يرتفع معبد سليمان العظيم، ذلك الحصن الذي لا يمكن اقتحامه، للإله العنيد، آنذاك، عادت إلى مخيلتي دمويته، وتاريخه الطافح بالحقد والعنف، فتخيلت مرة أخرى، تلك الرؤوس الصلبة التي شوتها الشمس، والأنوف الخطافية المعقوفة، والجباه القاسية الضيقة، والرقاب الجامدة التي لا تتحرك، والعيون الجشعة المحروقة للجنس العبري.

لكن بينما كنت اتجول خلال هذه البالوعة الدموية لاسرائيل، استدرت، لأرى جامع عمر، يسمو أمامي تحت اشعة الشمس، مثل نافورة منحوتة من الحجارة النادرة، ترقى إلى السماء، وتفور مياهها قليلاً في الهواء، ثم تدور على اعقابها متراجعة، وتعود ثانية إلى الأرض. فلم تعد لدي رغبة في مغادرة المكان.

دلفت إلى الداخل، وأنا مفتون مسحور، كانت الأحرف العربية مجدولة كالأزهار، حروف تكرس الحكم والمواعظ القرآنية، تلتف حول الأعمدة، كأشجار العنب المتسلقة، ثم تزهر ثانية وهي تحيط بالقبة. بهذه

الطـريقـة كانوا يحتضنون إلههم الرائع ، ويعانقونه بكروم العنب التي تزهر على هذه الأرض .

لقـد عاد الصفـاء والانتعاش إلى عيني ، وأنا أعبر العتبة حيث شعرت بالظـلال الملونـة لهـذا الجـامـع ، تغمـرني ، في البداية ، ولأنني كنت قد قدمت من مكـان شديـد الضـوء ، لم يكن بامكاني أن أميز شيئاً سوى هذا الجـو العـذب اللذيذ الذي يظللني ، ويريح نفسي ، لقد أحسست وكأنني أدخل حماماً منعشاً ، انعش لي جسدي ، ثم انطلق على الفور لينعش لي ذاكرتي ، فأخذت أسير وأنا انبض بالبهجة ، وارتعش امام التوقعات . وهذه هي الطريقة التي سيعبر بها المسلمون المؤمنون ظلمة ما بعد الموت إلى جنان الله الباردة ، كثواب عادل لهم .

أخـذت أتقـدم وأنـا أمـد ذراعي أمـامي ، وشيئـاً فشيئاً أخذت عيناي تعتادان الجو ، وتتلاءمان معه ، حيث ظهرت النوافذ امام عيني وكأنها كوكبة من النجوم المتلألئة ، وبدت القبة المرصعة بالذهب والزمرد ، تشع بالضوء الرقيق الجذاب ، وبعد ذلك أخذت التفاصيل تبين ، وتتراقص خلال تلك الظـلال الزرقاء ، الخطوط ، الديكورات ، والفقرات المأخوذة من القرآن ، تكمن كلهـا ، كأنهـا عيـون نهمـة لا ترتـوي ، خلف الغصـون المـزهـرة والمخلوقات السماوية .

وكـان أحـد المـؤمنين ، راكعاً على حصيرة من القش ، يصلي ، وهو يولي وجهـه نحـو مكـة ، وقد ظل لفترة من الزمن وجبهته ملتصقة بالأرض ، وهـو واثق ومطمئن ، كأنـه طفـل صغيـر في حضن أمـه ، ثم بدأ يرفع رأسه

ببطء، إلى أن اعتدل في جلسته، وأخذ يحملق في القبة الذهبية ذات الخطوط الخضراء. كانت عيناه تتابعان بانجذاب صوفي، تلك الفقرات الخفية الغامضة لمحمد، من بين تلك السطور والتراكيب المعقدة، وقد أحسست أن هذا الرجل غارق حلم سحري، يطارد ظبياً جميلاً، وكم كانت غبطته شديدة، حين استطاع أخيراً، أن يدرك أن كل هذه السطور الصغيرة المجدولة حول بعضها البعض، لم تكن مجرد لعبة فانتازية تافهة، وإنما هي أسطر من وصايا النبي السامية.

المؤمن وحده، هو الذي يستطيع أن يميز وأن يوائم بين هذه الأشكال الصعبة غير المنسجمة، ويوحد بين الرسالة العظيمة والمعاني الروحية في قلبه، إنه لا يزدري الأشياء الظاهرة، ولا يبحث عن الجوهر خلف الدلالات الواضحة، ولا يقيد نفسه بهذا العالم المرئي والملموس، دون أن يتوق إلى ما هو أكثر من ذلك، فالفكرة الرئيسية هنا، هي، من الذي خلق الروح، فكل هذه الحياة: الماء، الخبز، المرأة، الجبال، الحيوانات، ما هي إلا زينة الحياة الدنيا، وهي مجرد متعة للقلب الذي يستطيع أن يوائم بينها، كي يستطيع الوصول إلى ادراك المعنى الحقيقي للأشياء.

من وصايا المسيح: ترفعوا عن هذه الدنيا، وعن ثرواتها، فخلف هذه الظواهر يكمن الجوهر، وخلف هذه الحياة الزائلة يكمن الخلود.

وابوللو الذي يقف ثابتاً فوق نصبه المرمري يوصينا: كيف قلبك مع الدنيا، وتمتع بهدوء مع هذه الأشياء الزائلة، فالنظام المجرد للأشياء

يقول: خارج هذا التوافق الذي يصنعه فكرك، لا شيء سوى الهيولي.

أما بوذا، بنظرته الافعوانية الشيطانية المغرية، فإنه ينظر إلينا بابتسام، واصبعه في فمه، ويقودنا نحو الهيولي.

أما اليوم، داخل جامع عمر، فإنني أريد أن أسيطر على القلق في قلبي، وإن اناضل من أجل الوصول إلى حالة التوازن، لما أحبه بعمق في هذا العالم، أريد عقلاً متزناً واقعياً، وخيالاً ملتهباً، وحساباً دقيقاً، ومبادرة طليعية، وفي الوقت نفسه، ألا تكون هذه الأشياء خارج التوق الروحي، بل داخله، وأخذت أحملق في قبة المسجد لساعات، كالانسان المؤمن، فرأيت كيف احالت الحيل العربية، الحيوانات والنباتات إلى ديكورات واحالت الديكورات إلى حروف تتجمع كلها، فتكشف عن وجود الله، كي نراه أمامنا، كأمير يختفي خلف أوراق اشجار حديقته.

جلست في احدى زوايا المسجد، فلاحت امام ذاكرتي الاطلال الصلبة الجامدة لمعبد «بارثينون»[1] تماماً كما لاح وجه بياتريس السماوي الطاهر، في ذاكرة دانتي، وهو يلقي بنفسه باستسلام إلى حضن الأرض الدافىء.

إنني أدرك أنني قد قمت بدورك في حفظ التوازن وفي الصبر، وفي ترويض الايقاع، وجلوه بأبهى صورة داخلي، لقد رسمت الحدود لرغباتي، ووضعت الحواجز حول الطاقات المتفجرة لشبابي، لقد وجدت الكلمات المعبرة بدقة لوصاياك التي تشبه الأوامر التي تعطى للرياضي الماهر، من أجل أن يقوم بفتح الطريق أمامي، في البداية لُحْتَ امامي

كانجاز نظري جامد، ولم يكن قلبي يرغب ان يتبعك، لكن شيئاً فشيئاً، وبمضي الوقت والحب، تجليت لي كنسمة رقيقة تسير في مجراها المستقيم، وكهوى عميق ينبض بالقوة الحقيقية التي تشد نفسها باحزمة القوة والعافية، وتنساب كالموسيقى السحرية، وشيئاً فشيئاً، بدأت أدرك، وأنت تنهض امامي يا «بارتنيون» إن هذا الهدوء والصحو، ما هو إلا خميرة هذه العواصف كلها، وأن المهمة العليا للانسان، هي أن يتابع بايمان واخلاص، نضاله الذي لم يتشكل بعد، مع القضايا، من أجل تحريرها، وذلك بالحاق هذه القضايا بالصيغة الانسانية المجردة.

ولأول مرة على هذه الأرض، أرى فوضى القلب، وهي تتبع هذا الشرف، دون أن تعس عن ثرائها، لاطلال الذاكرة الجامدة، الذاكرة المظفرة التي تجمع هذه الفوضى اللامتناهية، داخل هذه الجمجمة الصحرية، وتشكل لها حدود مملكتها التي تحكمها. تماماً، كما يجد الانسان بين هذه الفوضى القانون الذي يحكم الظواهر، ويحيطها بدقة بالكلمات، ليصبح العالم هادئا، ولتنتظم هذه القوى المتضادة كما تنتظم فوضى القوى الطبيعية. هكذا لاح «بارثنيون» امامي، راسخاً وقادراً على تنظيم هذه الفوضى.

لكن اليوم، وأنا استعيد هذا النصر للمنطق والنظم والبنى، أحس بالغيظ يحاصر روحي، فقلبي لم يعد نقياً، وعقلي حطم التوازن القديم، واليوم، أي توازن يستطيع أن يكبح القوى الثائرة، التي تبدو غريبة علي، خلال هذا الصفاء السماوي، الذي أكاد أحس أنه محصور ومزيف، ولا

أستطيـع أن أدركـه أو أفهمـه . لقد ولدت علاقات جديدة ، وهبت شياطين الأرض ، وأيـاديهـا مملوءة بالهـدايـا الخطـرة ، وشفـاههـا ترتعش عليهـا الابتسامات الغامضة الخادعة المعقدة ، لقد تحطمت خوذة أثينا ، ولم تعد لديها القدرة على حماية رأس العالم .

لقـد احسست بدوافـع لا تقـاوم ، تحفزني للحفر تحت اساسات هذا المسجـد الـرائـع ، لأنني أعرف أن هذا المكان الرخامي الجميل ، قد اقام اساساته على كريتيدات اثوية[٢] ذوات صدور مثيرة بارزة ، وشفاه مطلية ، وعيون سوداء خطرة .

لقـد كنت احـاول بصعـوبـة بالغـة توضيـح دوافعي ، فالكـريتيـدات المعاصرة التي تزلزل ارواحنا ، لا تمتلك تلك الطلعة الساحرة التي كانت تتميز بها النسوة القديمات ، انها تشبه الآهات القضاء والقدر[٣] ، فاحداهن تدعى الجـوع ، وهي تسيـر ويتبعها رجال لا حصر لهم ، بحيث لم يكن لافـروديث نفس هذا العـدد من العشـاق الـذين يتبعـون هذه الامـازونيـة الشـاحبـة التي لا تقهـر ، ذات الصـدر المفلطـح والـوجـه الـذي لا يعرف الابتسام ، اما الأخريات فيدعين باسماء عدة مثل : الثأر ، الثورة ، والحرية .

أي «بـارثنيـون» ، وأي مسجد سوف يقام على هذه الكريتيدات؟ لقد جلست في هذه الـزاويـة البـاردة للمسجـد ، وأنـا ادرك أن لحظات الغبطة كلهـا قد فرّت مني ، لقـد اصبحت الحيـاة شديـدة الوطأة ، فاليوم لا نشعر بالقنـاعـة في كل لحظـة تمـر ، لا يكفينـا فرحها ، ولا حزنها . . لذلك فإننا

نلقيها خلف ظهورنا، ونتعجل مجيء اللحظة المقبلة.

في عصر آخر، سيكون الانسان سعيداً بالتأكيد، وهو يحافظ على بقائه في المناخ البائس لبارثنيون، أو سيكون سعيداً بالتربع والتسبيح، في هذا المسجد البهيج، مسجد عمر، الذي ينبض بالايمان والروائح الزكية، فالقلب هذه الأيام، ينبض بتسارع رهيب، تسارع لا يمكن الاحاطة به، إنه يصارع من أجل ايجاد الفروق، بل أكثر من ذلك، يصارع من أجل الايهام في بناء معبد المستقبل للإله الهائج الثائر الذي لم تتضح ملامحه بعد[٤].

---

(١) البارثنيون: معبد يوناني على الاكروبوليس في أثينا، بني في القرن الخامس قبل الميلاد.

(٢) الكريتيد: تمثال امرأة يقوم مقام عمود في مبنى.

(٣) إلاهات القضاء والقدر: ثلاث إلاهات عند الاغريق يتولين تصريف القضاء والقدر!.

(٤) يقصد بذلك اعادة بناء الهيكل على اطلال مسجد عمر، لذلك نراه يصور ذلك بسخرية مرة.

بكـــاء العبريين

كنت على عجلة من أمــري وأنــا اشق طريقي عبـر شوارع القــدس المعتمــة المسقـوفـة . كان وميض عيون العبريين يومي بالتهكم، والقلق، والتشهي، والحســد . أمـا المسلمـون فقـد كانـوا هادئين، مؤمنين بعمق وقنـاعـة برعـايـة الله، وهم يرمقـونـك بنظرات لا ابالية محايدة، وأنت تمر بالقرب منهم .

كنت أحـاول المـرور بسـرعة خلال هذا الحشد البشري الحائر، وأنا مفتـون بسحـر الألـوان، والعطـور، وضجيج أولئك الأناضوليين* القذرين الرائعين . كنت تواقاً للوصول إلى حائط معبد سليمان، ذلك الحائط الذي مرّ عليـه أكثـر من ثمـانيـة عشـر قرناً حتى الآن . كان اليهود يندبون بلدهم المفقود، ويدعون الإله «يهوه» للنزول ثانية، كي يعيد الألق إلى معبده .

كانت الشمس على وشـك الغـروب، وأنـا أعبر تلك الشوارع القذرة الضيقة . وكان اللون القمرمزي يغمر مداخل الشوارع المعقودة وأعمدتها، كأنـه جدول من الـدم ينبـع من عين الشسمس الغـاربـة . الظـلام والوجوه العـربيـة النحيلة التي لهـا بريق معـدني، وللحظـة، كان ذلـك المشهد،

ينعكس حتى على وجنات اليهود الشاحبة، التي اكتسبت لوناً وردياً غضاً.

عندما انعطفت نحو المنعطف، لاحظت حاخامين هرمين، يندفعان بسرعة باتجاهي، كانا يرتديان معطفين باذخين يثيران الاستهجان. احدهما اصفر اللون مشوب بلون قرمزي متفجر، والثاني أخضر فاقع الخضرة. وقد كان هذان الحاخامان الكبيران، ضوءاً، لمع فجأة، كما تلمع النجوم فوق الشوارع القذرة، القليلة الاضاءة، في الحي العبري. وكان علي أن أتبع هذين الحاخامين، لأنني حدست بأنهما قد لبسا تلك الملابس الباذخة، كي يقفا في حضرة إلههما، في تلك الخرائب القديمة، وينخرطا في بكائهما.

سرنا نزولاً خلال تلك الشوارع المرصوفة الزلقة، وفجأة سمعت بكاء ايقاعياً مرنماً، بأصوات رجالية، فوقفت مسحوراً. كانت تلك الأصوات النادبة الحزينة بالغة الروعة بالنسبة لي، ناعمة، ومثابرة، كمطر الربيع، أصوات تختلط فيها الدموع والضحكات. سرت خطوات لأجد نفسي أمام ذلك الحائط الذي أعيد تجديده. والذي يشكل الأثر الوحيد الباقي من معبد سليمان. وهو حائط عادي جداً، ذو حجارة ضخمة مرصوفة فوق بعضها بعضاً دون حشوات اسمنتية بينها. الحجارة العالية مغطاة بالطحالب، التي تتدلى على الحجارة الواقعة اسفل منها. اما الحجارة التي تقع في متناول أيدي الناس، والتي تصل إليها أيديهم، فقد نظفت نتيجة للمسات، وقبلات، وعناق اليهود.

حوالي خمسين متعبداً، كانوا يحملون العهد القديم في أيديهم،

ويستندون إلى الجدار، وهم ينوحون ويعولون، واحد الحاخامات، بلحية خشنة، يرتدي حلة حريرية سوداء، وقبعة من الفرو الثقيل، يردد اللحن، بايقاع رتيب، كأنه يتحدث من أنفه، وكان هناك شاب يقف خلفه مباشرة، يصرخ. وشاب آخر، يرتدي سترة طويلة سوداء، ضاربة إلى الخضرة، وقبعة ثقيلة، ذولحية ضاربة إلى الصفرة. وقد سحب ذلك الشاب عن زناره حبلاً من الشعر، كان يربطه حول خصره فوق سترته. ثم أخذ يهتز متأرجحاً إلى الأمام، وإلى الخلف، في حين وقف رجل عجوز يبكي بصمت، ويحشر وجهه في شق في الجدار.

لقد استمروا بالتوافد، وبتقبيل الجدران، وتمريغ وجوههم بالحجارة، واطلاق التنهدات العميقة، حيث تقدم إلى المكان قزم محدودب الظهر، يعتمر طربوشاً أحمر، وعمامة سوداء، ولحية سوداء كذيل الغراب، وأخذ يهتز اماماً وخلفاً، بايقاع معين، وبيأس وقنوط. كذلك فقد احتشد حاخامات بعباءات برتغالية، وحاخامات آخرون بعباءات زرقاء، وبيضاء، وبنفسجية، كأنهم ممثلون عريقون قدماء. يتحلقون كالعناقيد، ويشرعون في بكائهم الرنان. وكان هناك طفلان في الثامنة أو العاشرة من العمر، انحرطا في كرنفال النواح، حينما قاما بتقبيل الجزء السفلي من الحائط، أما القزم فقد قربهما إليه، وانخرط هو الآخر في النواح.

أما النسوة فقد كن يقفن في زاوية في الجهة اليسرى، حيث كانت تقف فتاة ذات شعر أسود فاحم، أجعد، وشال أصفر باطراف طويلة

مدلاة، وشفاة مطلية بأحمر الشفاة.

كانت تتكيء على الحائط، وترسل نظرات جانبية من عينيها، وتبتسم من فعل الرجال، كانت عيناها ما تزالان حمراوين من البكاء، ولكنها بعد أن ارتاحت من ذلك الطقس البكائي استسلمت لطيش الشباب الذي استحوذ عليها في تلك اللحظة، فتناست اللعنة السماوية التي ستنزل بها، والهيكل المدمر، والقتلى من ابناء جنسها، وأخذت تنظر إلى أولئك الرجال نظرات شهوانية جائعة. كانت تدرك أن لا شيء سوى الحب، يمتلك القدرة على حماية جيلها، ويزيد من تكاثر اليهود، ويعيد بناء هيكل سليمان.

لكن الرجال المتقدمين في السن، والنساء، كانت يندبون وينوحون، وقد عشت تلك اللحظات الغريبة، بكل إثارتها التي لا توصف. أحد الرجال العجائز، كان يراود نفسه للابتعاد عن ذلك الحائط، لكنه كان اعجز من احتمال لحظة الفراق تلك، فعاد وألقى بنفسه على الحائط.

لقد اجتمع اليهود في هذا المكان الذي جاءوا إليه من جهات الأرض الأربع، جاءوا ليغرقوا جميعاً في هذا الطقس البكائي الغريب، جاءوا من غاليتسيا، بسترهم الطويلة، وشعورهم التي تتهدل على الصدغ، ومن الجزيرة العربية بجلابيبهم البيضاء، ومن بولندا بشعورهم الحمراء القصيرة، ومن بابل بكل جلالهم، ومهابتهم تلك المهابة التي يتصف بها الآباء التوراتيون. وجاءوا من روسيا واسبانيا، واليونان، والجزائر.

أما ذلك الرجل ذي الملامح الصينية، بشاربيه الخفيفين، فقد جلس القـرفصـاء وأخـذ يحـرك رأسه، ونصفه العلوي بايقاع بطيء، وبدأ يرسل تراتيله بلا توقف، كطفل صغير انهكه البكاء.

كانت لعنـة الألم المـرتعب، تتسـاقـط على تلك الـرؤوس، «سوف ادمـرهم، وسـوف اسلمهم إلى الخرائب والأطلال، والنواح، والسخرية، سوف انـــزع عنهم صوت المتعـة، وصـوت السعـادة، وصـوت العـريس وصوت العروس ورائحة المر، وضوء المصباح».

كانـوا مبعثـرين في كل بقـاع الأرض، في غيتوهات اليهود المظلمة، وفي العصور الوسطى، كانت الجدران العالية تفصلهم عن بقية المدينة، وكـانت الأبـواب تفتح في الصباح، وتغلق في الليل، وكانوا يرتدون لباس الخزي، فقد كانوا يرتدون أشرطة قماشية حمراء أو صفراء على أكتافهم أو صدورهم، أو رؤوسهم. وفي شمـال فرنسـا في العصـور الـوسطى كانـوا يرتـدون قبعـات صفراء، كانوا يرتدون كبوداً أو قبعة حمراء أو خضراء، وقد كان عليهم أن يفعلوا ذلـك حتى يتمكن معـذبـوهم من تمييـزهم من أجل اساءة معاملتهم أو مهاجمتهم، دون يعاقبوا على ذلك. وعندما كان عليهم أن يسـوقـوهم إلى المحـرقـة، كانـوا يلبسـونهم الحلل السـوداء الحـزينة بالصلبـان، ولهب جهنم، والشيـاطين، ويتـركونهم يسيرون بين الجماهير المحتشدة التي ترتل اللعنات على رؤوسهم.

وفي مخـاض حيـاة العـار هذه، وفي حمى الموت والاستشهاد، كان هذا الحـائـط المتـآكـل بفعل قبلاتهم، يومض أمام عيونهم، كأنه الملجأ

البـرونـزي العـالي . كان يومض في مدارج روسيـا المغطـاة بالثلج، وفي سهـول اسبـانيـا المشمسـة . وكـان صهيـون «قمـة الفضيلة» يسمـو في صرخاتهم وبكائهم، كأنه قوس قزح رباني، فبعد ثمانية عشر قرناً، ها هم الآن ينوحون، ووجوههم تتجه نحو هذا الحائط، ويدعون ربهم :

«إلهنـا، إلهنـا، ازح عنـا كربنا، لقد اغتصب الآخرون ارثنا، واحتل الغرباء بيوتنا، وأصبح علينا أن نشتري الماء الذي نشرب، والحطب الذي نوقـد به نيـراننـا، لقـد غادرت البهجة قلوبنا، وتحولت رقصاتنا إلى نحيب وتنهدات، لقد سقط التاج عن رؤ وسنا» .

هكـذا كان ينـدب العبـريون قرونهم العديدة الماضية، باحثين عن، ومعـانقين، ومقبلين حجـارة اسـلافهم . لقد اقتلعوا، وهاموا في الأرض، ولم يبق موسى ذلـك القـائـد العظيم، معهم طويـلاً، كي يشـرّع لهم ويوجههم، وإنما تمزقوا، وتشتتوا، وأصبحوا بلا وطن، فلا عزاء لليهود التائهين .

وبعـد قرون عديـدة، ها هم الآن يرسـلون ممـثليهم : الفقـراء، والمسنين، الذين سخرت منهم شعوب الأرض، إلى هذا الحائط، حتى يستطيـع «يهـوه» أن يرى الهـوة السحيقـة التي سقـط فيها شعبه المختار، وليـدرك ذلـك الإلـه، إنـه قد حان الـوقت كي يتـذكر ويحفظ كلماته . ألم يعـدهم بأنـه سيـورثهم الأرض كلهـا؟، ألـم يحتفظـوا بايمـانهم آلاف السنوات؟ ألم يلحق بهم الخزي والعار؟، ألم يقتلوا ويستشهدوا من أجل مشيئتـه؟، كم يجب عليهم إذاً أن ينتظـروا؟ إنهم يسألـون الـرسـل،

ويصـرخـون من أجل حقوقهم . انهم المرابين الذين رهنوا دموعهم وحبهم من أجـل الفـائدة، وكان الله هو المديون . ولكن المرابين العبريين يلحون بالطلب، وباستمرار، بدموعهم وبسخطهم، كي يعيد إليهم دينهم .

الـروح اليهـودية تريـد أن تقهر الأرض . تريد أن تجعل كل الشعوب تابعـة لايقـاعها . وتريد سحق الواقع المعاصر، لأن الأرض لا تستطيع أن تحتمله، هذه هي خاصيتهم المميزة العميقة .

كان الاغريقيون يحبون بناء نسق مواز لنسق القوة، وفرحوا به، لذلك استطـاعـوا الانسجـام والتوافق مع كل لحظة تمر . لقد أوجدوا التوازن في هذا العــالم، ولكن اليهــود يحـاربـون بلا انقطـاع من أجـل تحطيم هذا التـوازن، وهـز قلب الانسـان، لذلـك فإن الـواقع غير قادر على احتوائهم واحتمالهم . ووراء كل دقيقة زائلة يطالبون بالمطلق .

* الأناضوليون . هم الأتراك الذين كانوا يحكمون فلسطين في تلك الفترة

أرض الميعـــاد

غربت الشمس تمـامـاً، والتمعت نجمتـا افروديت وعشتار كقنديلين معلقين فوق جبال «يهودا» المعتمة الزرقاء، واغلق الحاخامات كتبهم بعد أن توصلوا إلى السـلام مع أنفسهم، وأخـذت أيـديهم الهـرمـة المتشنجة تعـانق الجـدار ببـطء، وهم ينسحبـون من المكـان. كانـوا يتصـورون أن المعبـد قد أعيـد بنـاؤه، وأن صهيون قد نهض، بصورة جديدة كلياً، وأن المسيـح قد دخـل مرة أخـرى من باب داود الحصين، أجـل، دخـل كمـا تصوره الأساطير الموروثة: «على حماره الأبيض».

كان بصحبتي صديق عبري، كان من المغامرين الملحدين الجدد، المؤثرين والمنطقيين، استدار الصديق نحوي، وأرسل ايماءة ساخرة، وقال:

ـ «يعتقـدون أن صرخـاتهم التي يطلقـونها في الهواء قادرة على اعادة بناء القـدس، في حين أن الانتـاج الضخم، وتـوزيـع الثروات، هما وحدهما القادران على خلق الجنس البشري الفعال، وبناء القدس الجديدة».

أجبته:

ـ «يـا رفيق، هذه الأصـوات التي تسخـر منهـا، كانت دائمـاً البشائر التي زرعت البذور في الهواء، فبعد ألف أو ألفين من السنوات، جئتم أنتم أيها السيكـولـوجيـون، والليبـراليـون، والمنطقيون، كي تحصدوا ثمارها. إن الإعداد الروحي للواقعية، يتم دائماً بهذه الطريقة. إن غصص القلب التي تصـرخ، في محـاولـة منهـا للانطـلاق، تتحـول إلى أصوات وعواصف، تعصف بهـذا الجـو، وتجد قلوباً أخرى، وتدخل إلى العقول، والأيدي، والقـوى الفـاعلة، لتعبىء تلـك القـوى المـرئيـة وغيـر المـرئية. هذه هي الطريقة الوحيدة، التي تصبح فيها الكلمة جسداً يسير على الأرض».

ـ «وإلى ماذا تحتاج كي تتحول إلى جسد؟».

ـ «لا تحتاج إلا لهذا فقط: أن تترك بكاءها يتصاعد في الجو، لسنوات عديدة».

لقـد سمعت تلك الصـرخـة «المصدر» خلال الأسابيع العديدة التي تجـولت فيهـا عبـر «يهودا»، لقد اكتوت عيناي وأنا أنظر إلى تلك الصحراء المتبخـرة من القـدس حتى نهـر الأردن، والبحر الميت، تلك البقعة التي تنخفض اربعمائة متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط. لم أر زهرة واحدة تنمو، ولا قطرة ماء تتصاعد من تلك الأرض الجافة، كانت الجبال موحشة صارمـة، وصعبـة المنـال، كانت نموذجاً رائعاً للفنان الذي يعشق الجمال المتقشف التراجيدي في هذا العالم، ونموذجاً رائعاً للخصب الذي يتوالد داخـل الأنبيـاء الذين يريدون العيش داخل عزلتهم، لكنه للناس البسطاء العاديين، الذين يريدون أن يبنوا بيوتاً، ويزرعوا اشجاراً، وينجبوا اطفالاً، فإن هذه البرية الموحشة القاسية لا تحتمل ابداً.

وميض شعـاع لازوردي، يداعب ذاكـرتك بوله غريب وأنت تعبر هذه الجبـال الـرمادية المهجورة المقفرة، تلك الجبال التي لا ترى فيها طيراً أو ورقة خضراء، ولا تسمع إلا صوت نعيب غراب جائع، غير متوقع، يحلق فوق رأسك، أو عواء ثعالب تقترب منك اثناء الليل، باحثة عن طعامها في الرمال.

وفجأة، ترى اريحـا تبتسم لك، كواحـة معـزولـة، وتجد نفسك أمام بسـاتين الـرمـان المزهرة، وأشجار الموز، والتين، والتوت، وكلها محاطة بسيـاج من أشجـار النخيـل الطـويلة الـرشيقـة، وتستمتع بالأشعة الايونية الخلابة، وينابيع المياه المتفجرة، فترتاح عيناك، ويشعر جسمك بالراحة والتجدد، ولكن هذه الواحة سرعان ما تختفي، وتبتلعها الرمال!.

نفس ذلـك المنظـر البهيـج يقـابلك في حيفـا، فتـرى بساتين الرمان المـزهـرة والمتجـددة، وبساتين أشجار البرتقال والليمون، وفي الجنوب، في مدينـة ابـراهيم الخليـل القـديمـة، تحس بأُلفة وطمأنينة الأرض وهي تستقبل محراث الانسان.

في السـامـرة والجليل، تبدو الجبال أكثر وداً وأُلفة في مظهرها العام، حيث ترى الطيـور، والميـاه، والأشجـار، تعطي للطبيعـة أُنسهـا وأُلفتها، ولـكن امــراض الحمى تقتـل النـاس. «حتى الطيــور التي تحلق فوق الرؤوس يدركها الموت».

كما يقول المثل العربي القديم.

في العصـور التـوراتيـة كانت فلسطين تفيض بأنهـار اللبن والعسـل

وكانت قطوف العنب ثقيلة جداً، لدرجة أن القطف الواحد كان بحاجة إلى رجلين لحمله. أما الآن، فإن المظهر الفلسطيني غير ظاهر، فقد جلب العرب صحراءهم الموروثة معهم.

لكن نفساً جديداً يتبلور، فالروح اليهودية القديمة تهب مرة أخرى فوق سهول وأودية فلسطين المقفرة. لقد عاد اليهود، ليحرثوا الأرض، ويشقوا أقنية الماء، ويزرعوا، ويبنوا، إنهم يحاربون بطريقة نبيلة، يستثمرون الأرض، كي يتمكنوا من التغلب عليها وقهرها. إنهم يحاربون كي يعيدوا النور، والمتعة، والبهجة إلى بلادهم المتروكة والمهجورة.

حاخام يهودي من أصحاب الشركات العقارية الجديدة، كان يتحدث لي ويقول:

- «كل انسان يحمل على عاتقه مهمة حقيقية تتعلق بالأشياء التي يجب عليه أن يحررها: عليه أن يحرر حيواناته، أرضه، أدوات تجارته، جسده، وعقله. إن عليه واجب تحرير كل هذه الأشياء. لكن كيف؟، عن طريق استعمالها. وتهذيبها، وتطويرها، فإذا لم يستطع تحريرها، فلن يكون بإمكانه تحرير نفسه، كذلك فإن لكل شعب مهمة رئيسة تتعلق بالأرض، والموروثات، والأفكار، وهذه الأشياء يجب أن تتحرر. فإذا أرادت أن تتحرر، فيجب أن يمتلك الشعب اليهودي فلسطين».

سرنا في طريق مترب عريض، محاذ لوادي شعفاط الواقع على سفوح جبل الزيتون، كانت شواهد أضرحة اليهود، المدفونة بعمق في الأرض، تستحم بوهج شمس الظهيرة، في حين كانت قرية «الياسمينة»

الصغيـرة، التي تقـع على بعـد خطـوات قليلة من المكـان، تغـرق في الظلام. بينما وهيج الشمس يعشي العيون. وفجأة، رأينا جملين يتقدمان وسط القبـور، يتبع أحدهما الآخر، كانت رقبتاهما تتمايلان ببطء، وحين حدقت عيونهما السود الصبورة من تحت الرموش الطويلة، فينا برقة، برق قلبي، وأحسست أنني أعيش حياة حارة، في حضرة كائنات حية، تتحرك في هذه البرية القاسية.

بجـانبي، كانت فتـاة يهـوديـة شابـة، تسير، وتتنفس بسهولة، كانت تعمـل معلمـة، وتـدعى «جـوديت»، وقـد جاءت لتريني حديقة للأطفال اليهود، كانت في حوالي العشرين من العمر، قصيرة، رشيقة، ذات أنف معقـوف، وعينين سوداوين فاحمتين حائـرتين، وشعـر خشن أجعد، وذقن عريض، يومىء بالعناد والعزم.

سألتها:

«ماذا حصل كي تصبحي صهيونية؟».

قالت:

«كنت أدرس الطب، ولم تكن لدي أية انتماءات لأي دين أو بلد. وكان الناس دائماً يثيـرون اهتمامي، وكنت أشعر بالرأفة والشفقة تجاه الجنس البشـري كله، مدركـة كيف يمكن أن يتقـاسم الجميـع المعاناة والمتعة، والحـزن. لكنني كنت قلقـة حائـرة. فقـد كانت أوروبـا كلهـا، تبـدو لي قديمـة، مألـوفـة، ومبتذلة. كنت متعطشة لشيء جديد. ولهذا فقد جئت إلى فلسطين.

قلت:

- «لِم لَمْ تذهبي إلى روسيا، يقولون أن عالما جديدا يتشكل هناك؟».

قالت:

- «لأنه لا توجد حرية هناك. مجموعة فظة قاسية. تحكم الاخرين، كل الآخـــرين. والحقيقـة أن مجمـوعـة البـروليتـاريين هذه لم تكن تريحني مطلقا. كنت أريد الحرية».

قلت:

- «وهل وجدتها هنا، في فلسطين؟».

قالت: هنـا نعمـل بشكـل حر، نحـاول، نجـرب، ونبحث من أجل ايجـاد شيء ما، هنـا تستطيـع أن تجـد شعبـا تعمـل معه، طبق لمزاجك الشخصي، هنــا تجــد الثــوريين المتطـرفين في ثوريتهم والمحافظين المـوغلين في تقليـديتهم، هنـا تجد الحرية. للمرة الأولى أشعر انني حية وقـويـة وقـادرة على حب الأرض التي لم التفت إليها أبدا وأنا في اوروبا وقادرة على الاحساس بالغبطة لأنني أنتمي للجنس اليهودي.

قلت: بعبـارة أخـرى، لقـد بدأت بفقـد حريتـك، لقد بدأت بتقييد نفسك وشدها إلى ركن معين من الأرض، وبدأت بتضييق مساحة قلبك، فبعد أن كان فيه متسع لكل العَالم، أصبح الآن، يميز، ويفرق، ويختار، ولا يتقبل سوى اليهود. ألا تشعرين بالخطر؟.

احتجَّت الفتاة اليهودية بغضب، يشوبه بعض الخوف وقالت:

- أي خطر؟.

قلت: أي خطر؟!، أنا أقول لك: لقد منع زعيم الغجر شعبه من بناء البيوت، أوزرع الأشجار، أووضع الأسوار والأسيجة، لذلك فإنهم ينصبون خيامهم على الأرض لفترة قصيرة من الزمن، ومن ثم فإنهم يمتلكون حرية الحركة، وذات يوم، بينما كانوا يهدون خيامهم، انحنت فتاة شابة على الأرض، وتلكأت، وحين اقترب الزعيم منها، وجد أن الفتاة قد عصت أمره، وزرعت غصناً من الريحان على مدخل خيمتها، وأن هذا الغصن قد أزهر. لذلك، فقد انحنت الفتاة الشابة عليه، وأخذت تبكي، ولم تعد قادرة على فراقه. فتقدم الزعيم وهوفي قمة غضبه، فاقتلع الغصن، وأخذ يدوسه بقدمه، ثم هوى على الفتاة بسوطه، وهويصرخ: لماذا عصيت أمري، ألا تعرفين أن من يبني بيتاً سوف يرتبط بالبيت الذي بناه، وأن من يزرع شجرة سوف يقيد بتلك الشجرة؟!.

صرخت الفتاة اليهودية قائلة:

ـ نحن لا نريد أن نظل اليهود الرحل، أكثر من ذلك.

قلت: هذا هو الخطر الذي اتحدث عنه، أنتم لا تريدون التقدم أكثر من ذلك. إذا كان الهدف من الحياة هو السعادة ـ أن تأكلوا جيداً، وتناموا بأمان، وتعيشوا بسلام ـ فهذا ليس سوى مجرد تبرير، بأنكم تريدون أن تهربوا من الاضطهاد والاحتقار، وأنكم تريدون أن تمدوا جذوركم أخيراً في أرض بلادكم. ومع هذا، فأنا لست مع هذا الطرح، وذلك لاعتقادي ـ وأشكر الله على ذلك ـ أنكم لن تجدوا السعادة والأمن هنا في فلسطين.

لكن، إذا كان الهدف من الحياة، وهدف الشعب بشكل خاص، أصعب من ذلك بكثير، وهو أن يناضل من أجل احداث أقصى ما يستطيع من تغيير في سلوكه، وتفكيره، وقيمه الجمالية، وأن يسمو على عذاباته، عندها، وبلا جدال، تكون الحركة الصهيونية منافية ومناقضة للمصالح العليا لجنسكم اليهودي.

قالت: لِم لمْ يأخذ الانجليز والفرنسيون، واليونانيون مثل هذا الدور من الترحال إذاً؟ أم أنك تعتقد أن اسهاماتهم بمجملها قد تضاءلت لأنه أصبحت لهم بلاد؟.

قلت: لكل شعب مناقبه الخاصة، وعيوبه الخاصة، وبالتالي فإن له طريقه الخاصة للوصول إلى ذروته، واليهود يمتلكون هذه الخاصية العظمى: ألا يرتاحوا، ألا يتوافقوا مع حقيقة الزمن، أن يناضلوا من أجل الهروب، أن يعتبروا كل تمثال سجاناً، وكل فكرة سجناً خانقاً. وبهذه الخاصية الحادة التي يتمتعون بها، صانوا الجنس البشري من المساعي المدبرة للقناعة وراحة البال. ما أريد قوله هنا، أنه من خلال هذا الوضع الذي لا خلاص منه، استطاعت الروح اليهودية أن تحطم التوازن، وأن تدفع نحو التكامل والارتقاء وأن تثير عناصر الكبرياء والفخر في الحياة، وهذه الروح لا تقنع، ولا تعرف التوقف، إنها تثب من النباتات إلى الحيوانات، ومن الحيوانات إلى الانسان، ثم تعذب الانسان وتلوّعه، وكأنها تريد أن تفجره لتصل إلى ما هو أبعد من ذلك.

قالت: آباؤنا في أرض كنعان، كانوا مزارعين، تجذروا في أرضهم،

وأبدعوا حضارتهم .

قلت :

تلك كانت طبيعة جسكم إذاً، لم يحمل اليهود خاصية فعل الثورة بشكل دائم، وإنما اكتسبوها، فالاضطهاد والقتل، والظلم، والنفي، كل هذه الأشياء التي تطلقون عليها الشتات (دياسبورا) الزمت الجنس العبري منذ ألفي عام، وشكلته وكونته عكس ارادته، وبالقوة، في خميرة الأرض .

قالت :

ـ بالقوة؟! .

قلت :

ـ هل ازعجتك هذه الكلمة، أليس صحيحاً أن القوة هي أعظم قانون سري للتاريخ، الكثير من الأجناس فضلت أن تهرب من دمويتها، وقدرها الجليل، كي تعيش حياتها السرية بسرور وسعادة، لكن الحاجات الضرورات الاقتصادية، والحروب، وبعض الأنبياء الذين ولدوا بين ظهرانيكم، لم يتركوكم وشأنكم، وإنما عن طريق القوة، والقهر، حفزوكم للنهوض .

بهذه الطريقة تشتتتم في اصقاع الأرض لقرون عديدة، وقد عانى اليهود وذاقوا الرعب والقتل، وقد ترك هذا الأمر، صبغته التي لا تمحى على نفسيتهم، وخلق فيهم الكره والحقد على كل ظلم وجبروت، سواء جاء هذا الأمر من الأفراد، أو الأنظمة، أو حتى الأفكار، ولهذا فهم جماعات مرعوبة جزعة. هذا هو قدرهم، وبدونهم يفسد العالم ويتعفن .

ـ شكراً لك، لهذا الدور الذي رسمته لنا، وعلي أن أقر وأعترف أننا نشعر بالشرف العظيم لكوننا ضحايا القتل والقلق وعدم الاستقرار الذي لا ينتهي، وكوننا نجعل الآخرين قلقين، لكننا لا نريد أن نلعب هذا الدور أكثر من ذلك.

قلت:

ـ لقد تعبتم إذاً؟، لكن الحتمية التاريخية التي تسير الأجناس لن تتوقف لتسألكم، إنها تدفعكم بلا هوادة، شئتم ذلك أم أبيتم. وهذه الحركة الصهيونية الحديثة، أيضاً، ليست سوى قناع يلبسه قدركم المتجهم ليخدعكم إلى ما لا نهاية. ولهذا السبب فأنا لا أخاف الصهيونية: كيف يستطيع خمسة عشر مليوناً من اليهود أن يحشروا أنفسهم هنا؟. لن تجدوا الأمن هنا، فخلفكم ـ وهذا هو الذي يجب ألا تنسوه أبداً ـ جموع من العرب السمر الأشداء المتحمسين.

ولهذا ـ شئتم أم أبيتم ـ ستصبحون أدوات الروح لعصرنا هذا، وعصرنا هو عصر الثورة، ولهذا سيكون عصر اليهود، كما قال أحدهم ذات مرة: «في الثاني والعشرين من آذار عام **١٨٣٢**، حين مات جوتة، انتهت حقبة تاريخية، وبدأت حقبة جديدة، حقبة حكم اليهود». وهذا صحيح، فقد كان جوتة آخر ممثل حقيقي للتوازن في عصره، بعد جوتة، كانت البداية الحقيقية لعصرنا الراهن، وسيكون العنف هو العنصر الثمين على حد سواء، من أجل تفجير التوازن القديم، وخلق التوازن الجديد.

وهذا هو سبب انتشار الجنس اليهودي في هذه الأيام، لأنه المادة

الجوهرية التي لا غنى عنها من أجل تفجير أي توازن، وهذا هو السبب الذي جعل المثقفين الذين يحتلون المراكز العليا ويقودون صناع القرار في العالم، من اليهود، لماذا حدث كل هذا؟، لأنكم كنتم مشتتين في أصقاع الأرض، وقلقين.

هكذا كنتم في ذلك العصر البائد الذي دمرتموه بأيديكم. الشتات هو وطنكم، لا جدوى من هذا الهرب من قدركم، والبحث عن السعادة والأمن، في هذا البلد النائي. آمل - لأنني أحب اليهود - أن يتمكن العرب، عاجلاً أم آجلاً من طردكم من هنا، وأن يعيدوا تشتيتكم في هذا العالم.

في هذا الوقت، كنا قد وصلنا إلى حديقة للأطفال، حيث كان الفتيان اليهود، الشقر، والسمر، وذوي الشعر الأسود، يلعبون تحت الأشجار، ويغردون كالأطيار، وبحركة عفوية، وجدت نفسي اداعب شعورهم الناعمة، فقد أحسست فجأة، بشعور تراجيدي تشاؤمي يغمر قلبي.